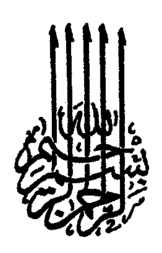


القاهرة



دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة

٧ شارع السراى بالمنيل ت : ٩٨٧٩٢٤

حدائق حلوان - مدينة الهدى ت : ٦٨٨٠٧١

دكتور عبد الحليم عويس

المسلمون فى معركة البقاء

قضية هذا الكتاب

الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه . .

وقد تألبت علينا المكاره ، ومع ذلك ، فسنظل نقدم بين يدى كل مكرهة حمداً . . ومع كل مكرمة شكراً . . !!

وما أصابنا من سيئات فمن أنفسنا . .

وحتى أكثر حكامنا هؤلاء . . الذين يبدون أسوأ ما يكونون طائفية وانتهازية ومادية وسوء تقدير وقصر نظر . . حتى هؤلاء البؤساء ليسوا إلا ثمرة من ثمار مجتمعاتنا الفاسدة ، ونفوسنا الممزقة . وقد نبتوا كما ينبت الشوك من الشوك ، وكما يخرج الولد الفاسد من البيت الفاسد ، وبالتالى فهم ليسوا إلا حصاد مسيرتنا . . نحن الشعوب الإسلامية التى تباعد ما بينها وبين حقيقة دينها بعد ما بين الأسود والأبيض .

فلنحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، ولنرفع إليه رجاء الأذلاء ألا يسلط علينا بذنوبنا من لا يخافه ولا يرحمنا . . وأن يرفع عنا مقته وغضبه !!

* * *

وهذه الدراسة حصاد عامين . . تقلبت فيهما من بلد إلى بلد فى مؤتمر أو ندوة . وراقبت فيهما عن كثب ، عن طريق اللقاءات المباشرة ، والتقارير الوثيقة ، أحوال هذا العالم الإسلامى الذى يبدو الآن ، وفى دورة أخرى من التاريخ ، وكأنه عاد ليكون « قصعة » يقتسمه فيها ، فى هذه المرة ، أمريكا ذات السياسة النفاقية المجردة من كل المعانى الأخلاقية والالتزامات الإنسانية والرؤية الحضارية ، وروسيا ذات السياسة الوحشية الدموية القاصرة !!

وبين مخلبي المادية الأمريكية والروسية تقع القصعة الإسلامية التى يتداعون إليها ، ويرضون أطرافاً من هنا ومن هناك على حسابها . . فثمة لقيمات لليهود ، وثمة لقيمات للهندوس . . أما العم سام فهو الجشع النهم الذى يريد ابتلاع معظم القصعة . . بعد أن يعطى لإخوانه الشيوعيين جزءاً يسيراً .

إن أمريكا التى تفترسها الأمراض الحضارية من الداخل . . أمريكا التى كادت أكبر مدنها نيويورك تهوى أمام ضربات « المافيا » وقطاع الطرق واللصوص ، عندما انقطع التيار الكهربائى لليلة واحدة . . أمريكا هذه ومن ورائها أوربا التى أباحت الشذوذ الجنسى والخيانة الزوجية — بحكم القانون — وسادتها موجات السكر والعربدة وأصبحت وكأنها برميل من بارود يوشك أن ينفجر فى أية لحظة .

أمريكا ومن ورائها الفاتيكان . . التى يحيط بها سياج من الشيوعيين فى الحزب الإيطالى الشيوعي القوى . . فضلا عن ظاهرتى

اللصوصية والعهر اللتين أصبحتا سمة إيطاليـــا ، وبات السائحون ينأون بأموالهم وأعراضهم عن الذهاب إليها . .

أمريكا هذه لا عمل لهـا الآن ، وبعد الوفاق الدولى مع الشيوعية ، إلا تطويق العالم الإسلامى ، ومحاولة تصفية المسلمين جسدياً . سواء فى آسيا أو أفريقيا ، أو غيرهما .

وتستطيع أن تتبع أية تصفية دموية للمسلمين فى الأرض سواء وقف وراءها الشيوعيون ظاهرياً . . أو المبشرون . . وسوف تجد هناك أمريكا . . تحمى النظام الشيوعى من الانهيار تارة ، وتحمى إسرائيل تارة أخرى ، وتحمى المبشرين – بالملايين والمعلومات – تارة ثالثة ! !

والغريب كل الغرابة أن أمريكا هذه تتشدق بحقوق الإنسان فى الاتحاد السوفيتى . . وتثير بعض التمثيليات النفاقية حول هذا الأمر ، مع أنها لم يبد منها فى أى يوم أية لمحة حقوق إنسان نحو عشرات الملايين من المسلمين الذى يتعرضون – بأيديها السوداء – لحملة إبادة ، أو حرب عالمية دولية . .

وعلى خطى مبادىء ولسون الأربع عشرة . . التى خدعت بها أمريكا العالم ، وتواطأت من ورائها – على فرض الوصاية الاستعمارية على العالم الإسلامى ، وعلى ضياع فلسطين ، وكانت أمريكا أول من أعلن اعترافه ودعمه لدولة إسرائيل . . . دون

أن تتذكر أن رئيسها ويلسون كان قد أخرج للعالم مسرحية المبادىء الأربع عشرة المزيفة !!

أما روسيا ودورها فى هذه اللعبة فليس أكثر من دور الشرطى الذى يعمل بأجر . . لأنه فى حاجة إلى الدولار والقمح . . ولأنه مهدد باعتبارات كثيرة داخلية وخارجية !!

* * *

وأما أذناب أمريكا وروسيا فى العالم الإسلامى ممن ينتسبون زوراً إلى الإسلام ، فلا ندرى ما نقول لهم سوى أن نتذكر نحن المسلمين طبقة ملوك الطوائف . . ونقيس هؤلاء بأولئك حذو النعل بالنعل . . ولئن كانت نهاية هؤلاء الملوك الطوائفيين قد بلغت من السوء مبلغاً كبيراً . . لدرجة أن أحدهم وهو (ابن صمادح) قال وهو يموت : « نغص علينا كل شىء حتى الموت » . . لئن كانت نهايتهم كذلك . فإننا نحن المسلمين مطالبون بأن نتجنب مصير الشعب الأندلسى المسلم الذى عقدت له الكنيسة أبشع محاكم التفتيش . . وألجأته عبر البحر إلى بلاد المغرب وغيرها . . ولعلنا نتساءل : إذا كان الأندلسيون قد وجدوا ملجأهم فى بلاد المغرب مثلا فإلى من سنلجأ نحن إذا استولت جحافل التبشير على بلادنا بدءاً من أندونيسيا ومروراً بالشرق العربى وحتى طنجة بالمغرب ؟

هل سنلجأ إلى أمريكا . . أم إلى معتقلات سيبريا ؟ أم أن العالم الغربى بشقيه الأمريكى والشيوعى لن يتركنا نعانى من هذه المعضلة . . وسوف يقدم لنا الحل الوحيد الحاسم . . أعنى التصفية الجسدية أو الفكرية الشاملة ! !

وإن ذلك – لا قدر الله – هو النتيجة الطبيعية لمسيرتنا المستسلمة البلهاء لحكام . . يوالون النصارى واليهود ، باسم الرأسمالية أو الشيوعية أو الديمقراطية أو الاشتراكية أو الحلول السلمية ، أو الاعتبارات الوطنية .

* * *

وإنه والله لإعجاز إلهى أن يوضح القرآن هذه القضية . . مقدمة ومسيرة ونتيجة . . فيقول :

* « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض » .

« ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين » .

* « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة » .

« فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » .

* « ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ، حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » .

* « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم »(١) .

* * *

إن قضية هذا الكتاب ، مهما اختلفت الموضوعات ، واحدة . إنها قضية المسلمين التى برزت من خلال مسيرة الأحداث فى الأعوام الأخيرة . إنها الصراع المصيرى مع الغزو التبشيرى الأمريكى والأوربى الشرس الذى يريد تطويق العالم الإسلامى ، والاستيلاء على الأرض المقدسة بدءاً من المسجد الأقصى . . وانتهاء بالمسجد الحرام . . . ثم تحويل العالم الإسلامى كله إلى مزرعة للتبشير يفرخ فيها ويبيض وحده .

إنها معركة المسلمين فى أفريقيا وآسيا وسائر العالم من أجل البقـــاء ! !

عبد الحـــليم عويس

---

(١) المائدة – ٥١ – وما بعدها .

الملحمة الأولى

معركة التصفية الجسدية

(١)

الدم الإسلامى أرخص الدماء فى الأرض

لو أن عقلا ألكترونيا من تلك العقول التى صنعتها أمريكا ، أو وصيفتها على الطرف الآخر من محور القوة « روسيا » .

لو أن عقلا من عقول هؤلاء أو أولئك توفر على إجراء إحصاء دقيق لتلك الملايين من الرءوس البشرية التى انفصلت عن أجسادها فى غير حرب وبلا ثمن . . . ولتلك الدماء التى سالت وأهدرت باسم شعارات (التقدمية) و (الثورية) و (الاشتراكية) و (القومية) وغيرها من الشعارات . .

لو أن ذلك الإحصاء قد تم فعلا لأثبت — بما لا يدع مجالا للشك فى — رأينا أن « الدم الإسلامى » هو أرخص الدماء فى الأرض ، خلال هذا القرن العشرين للميلاد الرابع عشر للهجرة .

ففى آسيا ، وعلى تخوم الحدود الذائبة ، بين القوتين الثانية والثالثة فى العالم (روسيا والصين) يكاد يشم من له حس إسلامى روائح منبعثة ، تدل على دماء زاد تعدادها على ثلاثين مليون مسلم . . هم العدد التقريبى لضحايا الثورة الشيوعية . . التى ابتلعت هذا الجزء الآسيوى من عالم المسلمين .

وفى آسيا – أيضا – غير روسيا والصين ، أكثريات أبيد إسلامها ، وأقليات ذاب كيانها . . وتعرضت هذه وتلك لأبشع أنواع المجازر . .

وفى أفريقيـــا . . حيث تعيش شعوب إسلامية لها أهميتها – سلط على الدم الإسلامى « ثوريون » و « تقدميون » نصبوا للأعناق الإسلامية آلاف المشانق . . وحفروا (للدم الإسلامى) مئات القنوات . . واستوردوا (للجسد المسلم أبشع وسائل التعذيب . وللعقل المسلم أسوأ أساليب القهر ، وللنفس المسلمة أردأ أنواع الحروب النفسية !!

إن قضية « الدم الإسلامى » الذى أهدر رخيصا ، وتواطأ العالم كله على إهداره ، دون أن يرفع أحد فى هذا العالم عقيرته بما يسمى « بحقوق الإنســـان » .

... هذا (الدم الرخيص) يحتاج إلى دراسة مستقلة وافية . . تدين حضارة هذا العصر الذى يدعى أبناؤه التقدمية والحرية والعقائدية . . وحقوق (الحيوان) !!

* * *

ونبدأ حديثنا بتلك الكارثة التى حدثت منذ أقل من خمس وثلاثين سنة ، وأبادت شعوبا إسلامية كاملة تصل إلى ثمانية شعوب ، كان لها رصيدها من حضارة الإسلام ودورها فى تاريخه ، وقد قدمت للفكر الإسلامى عباقرة وأفذاذا أدهشوا العالم على امتداد العصر الإسلامى الوسيط ، وحسبنا أن يكون صاحب الكتاب الثانى بعد القرآن واحدا من أبناء هذه الشعوب . . إنه الإمام « البخارى » وكفى !!

وهذه الشعوب التى أبيدت هى ، (الكريمين ، والتتار ، والكالموك ، والكرك ، والشيشن ، والكولاك ، والأنجش ، والألبان) . . وقد كان عدد الشعوب السبعة الأولى نحو خمسين مليونا ، فنقص الآن إلى ما دون الثلاثين . . وقد استولى الروس على بلادهم وأراضيهم فى شهر فبراير ١٩٤٤ ،

وذلك إثر خديعة سياسية قام بها « ستالين » ، واعتمد فى خديعته تلك على زعم من أغرب المزاعم فى التاريخ ، هو أن هؤلاء الناس كان فى « نيتهم » — ولاحظ كلمة نيتهم — أن يتعاونوا مع الألمان ضد الروس ، أثناء وجودهم فى روســـيا .

وباسم هذا الزعم ضم هذا الإرهابى أذربيجان ، وقازكستان ، وأزبكستان وتركستان ، وغيرها ، أما ألبانيا فقد تسلمها شيوعيون ألبان سلموها لقمة سائغة للاستعمار الروسى ، ثم تقلبت بها السياسة إلى الاستعمار الصينى . .

والغريب أن الصحافة العالمية لم تشر قط إلى أية معلومات عن الشعوب المسلمة السبعة التى اغتصبها الروس إبان الحرب العالمية الثانية ! !

والغريب أن الوثائق والمعاهدات والأتفاقات التى أبرمت عقب انتهاء الحرب ، لم تشر قط إلى هؤلاء الناس !

والغريب — أخيراً — أن أمريكا وأوربا قد تعاونتا مع روسيا والصين ، فى قهر كل صوت يحاول أن يبرز قضية هذه الشعوب فى المحافل الدولية وبالتالى فلم تدرج قضيتهم قط فى الأمم المتحدة ، ولا فى محكمة العدل الدولية ، ولا فى غيرهما من محافل « حقوق الإنسان » ! !

* * *

وعندما نمد الطرف إلى بقاع أخرى فى آسيا قبل أن نعبرها إلى غيرها فى تتبعنا لمسيرة مجرى « الدم الإسلامى » المتدفق ، سوف يرتد الطرف حسيرا ، وهو يرى — على القرب — تلك السيول الحمراء التى تحف بشاطئ الخليج الإسلامى من جانبيه الإيرانى والعربى .

— فبينما كانت شبه القارة الهندية ، يتعاون فيها الهندوس عبدة البقر ، مع الانجليز عبدة المسيح ، على تصفية الدم الإسلامى ، لدرجة أن الإنجليز كانوا يجعلون من إخواننا المسلمين الهنود بديلا للدواب التى يسوقونها أمامهم لتكون ضحية قنابل « الألغام » الموضوعة فى باطن الأرض .

بينما هذا . . فى شبه القارة الهندية ، نجد على خطوات أقرب وأقرب ينابيع من الدماء الإسلامية ، فجرتها حفنة شيوعية فى اليمن الجنوبى الأحمر .

وفى سوريا . . على يد البعث . .

وفى قصر النهاية ببغداد البعثية . .

وفى تايلاند حيث يعيش أكثر من مليون مسلم . .

وفى الفلبين حيث يقترب عدد الضحايا من مليونين .

وفى فلسطين المحتلة ، وفى جنوب لبنان حيث تتعاون الطائرات السورية والمارونية والإسرائيلية على تعميق قنوات الدم الإسلامى . .

وفى أندونيسيا يتقلب مصير المسلمين بين ضغط داخلى بقيادة سوهارتو ، وضغط آخر يقوده التبشير والفاتيكان الآن . .

• • •

وفى أفريقيا تأخذ المعركة أبعاداً جديدة . فى هذه القارة تحدد الأمل الإسلامى على مشارف هذا القرن ، وراج بين المسلمين أن القارة السوداء هى قارة المستقبل الإسلامى . . ولئن كان أمل المسلمين قد خاب فى بقاع مختلفة من العالم ، فإن المسلمين قد اتجهوا ببقية رصيدهم من الأمل إلى تلك القارة ، يأملون أن تكون الشعاع المتبقى . .

ومع أن القوى الصليبية قد فشلت دينيا فى داخل كياناتها ، بحيث إن مكانة الدين قد هبطت فى أوربا وأمريكا إلى أسوأ الدركات ، فإنها قد رأت ضرورة تصدير (الدين) إلى الخارج ، لكى تقف به أمام زحف الإسلام فى القارة السوداء .

ولما لم يكن الدين هو هدف هذه القوى الاستعمارية ، فإنها عندما خاب أملها فى أن تقف أمام زحف الإسلام، لم تر بأساً أن تستورد الشيوعية وتهادنها ، للوقوف أمام الدين الزاحف واللغة الزاحفة .

ونتيجة لهذه الجهود المكثفة من قبل الصليبيين وعملائهم الشيوعيين توشك أفريقيا اليوم أن تضيع من يد الإسلام ، - فى نيجيريا ، التى تعتبر أكبر بلد أفريقى سالت الدماء الإسلامية بعنف وقسوة ، وبطريقة خفية ولكن مكشوفة . لم يكن يدرى أحد لحدودها نهاية ، وكان أبرز حادث دموى هو مقتل المجاهد الرئيس (أحمدو بلو) وما تبعه من حكم نصرانى ومن حركة انفصال (بيافرا)

وفى البلد الإفريقى « الثانى » حيث تعيش أغلبية إسلامية كبيرة ، وتوجد إمكانات نهضة إسلامية قوية ، تمكن التواطؤ الصليبى الشيوعى من التنكيل الدموى والإرهابى بالاسلاميين ، حتى ليقول بعض المؤرخين : إن ما تعرض له الإسلاميون فى هذا البلد على امتداد العقدين الأخيرين يعتبر من أكبر المذابح العقائدية فى التاريخ .

أما فى (تنزانيا) حيث نجح طاغوت كبير هو (جوليوس نيريرى) فى الوصول إلى الحكم ، فقد أقام المشانق للمسلمين ، وتقول إحدى الإحصاءات أنه تم القضاء على أكثر من عشرين ألف مسلم فى بضعة أسابيع ، وأن من جملة هؤلاء كان خيرة العلماء الزنجباريين . .

أما فى كينيا وتشاد والصومال ، فالدم الإسلامى يتأرجح بين السفاك لأمور داخلية ، ولاعتبارات خارجية .

وتأتى (حبشة) هيلاسلاسى ، ومانجستو ، لترى العالم أبشع صورة للعداء للإسلام .

ولقد عمل بكل قوته على تصفية المسلمين ، وعلى تنصيرهم ، وبما أن تنصيرهم كان مستحيلا ، فقد فرض عليهم أسوأ ظروف الحياة المتخلفة .

وما كان موقفه ، ولا موقف الدكتاتور الحالى « مانجستو » ، من مسلمى أريتريا والصومال الغربى ، بمدنه الإسلامية العريقة وعلى رأسها (هرر) إلا جزءاً من احتقار الدم الإسلامى وإنسانية الإنسان المسلم .

* * *

هذا الإنسان المسلم الذى أبرز إلى الوجود فى قوله وسلوكه أبرز صور التسامح وحمى الجنس اليهودى من الانقراض على يد المتعصبين من النصارى .

هذا الإنسان تحول إلى ما كان عليه « اليهودى المنبوذ » فى مدن أوربا فى العصر الوسيط .

وإذا كنا نحن المسلمين قد سعدنا بالإفراج عن المطران « كابوتشى » من سجون إسرائيل . بعد الضجة العالمية التى أثيرت حوله ، فكم كنا نتمنى أن تقوم ضجة قريبة منها لعشرات الألوف من المسلمين المعتقلين بلا ذنب ، وعشرات الملايين من المسلمين المضطهدين فى آسيا وأفريقيا ، لمجرد أنهم ينتمون إلى الإسلام .

إننا نريد مساواة فى العدل . .

ونريد ألا يسجن المسلم بلا جريمة ، وألا تعقد له محاكم خاصة ، وألا يباع دمه — وحده — بأرخص الأثمان .

(٢)
أمريكا تطوق العالم الإسلامى

نستطيع أن نقول : إن التخوم التى تصل بين عامى ٦٦ ، ١٩٦٧ م كانت بداية (المرحلة الثانية) من مراحل ابتلاع أمريكا للعالم الإسلامى .

وبما أننا لسنا على منهج بعض المفكرين الذين ينتظرون من أمريكا الصديقة أن تطلعهم على تخطيطاتها بالتفصيل (!!) فنحن مضطرون ـ آسفين ـ لاستعمال عقولنا ، ومضطرون ـ أيضا ـ للاستفادة من دروس التاريخ ، وللنظر فى الأحداث بعين التحليل والاستنباط .

ولهذه الحيثيات ـ وغيرها ـ فنحن على وجه التقريب نقسم مراحل تطويق أمريكا للعالم الإسلامى إلى ثلاث مراحل :

الأولى : مرحلة تمهيدية ، وفيها نجحت أمريكا فى تفريغ العالم الإسلامى من الاستعمار القديم التقليدى ، وأحدثت ـ بعده ـ أنواعاً من الانقلابات الدموية الثورية التى قضت على ما أبقاه الاستعمار رغما عنه من خمائر القوة الكامنة ، فقضت هذه النظم ـ مثلا ـ على كل الحركات الإسلامية الإيجابية (كالإخوان المسلمين) فى مصر ، وحزب (ماشومى) فى أندونيسيا ، و (فدائيان إسلام) فى إيران ، وغير هذه من الحركات التى كانت تمثل ـ وعناصر أخرى ـ خمائر المستقبل ، كما قضت هذه النظم أيضا على الإحساس بالإنسانية ، وعلى معنى الحرية ، وعلى حب الوطن الذى تحول إلى سجن كبير !! وأصبح الوطن الإسلامى ـ كما قال أيزنهاور ـ (**منطقة فراغ**) تحتاج للملء !!

الثانية : أما المرحلة الثانية فنستطيع أن نسميها مرحلة الالتهاب وإشعال الحرائق لإبادة كل ما يمكن أن يكون قد بقى من خمائر المستقبل .

ومع سنة ١٩٦٦ م ، بدأت مرحلة إسقاط العناصر التى أدت دورها فى المرحلة الأولى وأصبحت عبئا على التخطيط الأمريكى .

فبدأ الأمر بإسقاط سوكارنو والشيوعيين فى أندونيسيا ، وبدأت الفضائح الأخلاقية لسوكارنو تظهر على السطح بعد أن كانت مستورة . . وبدأ « التبشير » الأمريكى يرث التركة بمساعدة رجل آخر يمثل المرحلة الجديدة ، ويستطيع الاضطلاع بأعبائها .. ! !

وقد تتابع سقوط أبطال الفصل الأول من مسرحية تطويق العالم الإسلامى بما لا يحتاج لبيان ، وبطرق وأساليب مختلفة معروفة . ولئن كانت المرحلة التمهيدية تمتاز بشىء من المداهنة والنفس الطويل ، فإن المرحلة الثانية لا تقبل إلا أحد أمرين :

إما فرض « الأمركة » وتوابعها من تبشير وتحلل خلقى ونظام رأسمالى ، وما إلى ذلك بأسلوب شبه واضح ، مع إظهار لون من الديموقراطية الموجهة التى لا تضر بالتخطيط التبشيرى والتطويق الأمريكى ! ! ، ومع الاحتفاظ بقدر من التهديدات أيضا .

وإما — ولا بديل عن ذلك — استئجار الشيوعية — (بعقد عمل مؤقت) لاشعال الحرائق فى العالم الإسلامى ، وللاعمال الإبادية ، كى تمهد الأرض للتطويق الأمريكى — كمنقذ من جانب ، ولكى تطلع الشعوب على الأسلوب الشيوعى ، الذى يمثل البديل الوحيد — لمن أراد الخروج على التخطيط الأمريكى من جانب آخر ، فتضرب أمريكا — بهذا الاستئجار المرحلى للشيوعية — عدة أهداف بحجر واحد .

أما المرحلة الثالثة : فهى التى يتم فيها الاستيلاء شبه الكامل — مع بعض التجاوزات المرحلية — على العالم الإسلامى كله وبلا استثناء . ودون اعتبار لأى صداقات سابقة أو أى مواثيق أو عهود . . ويكون المسوغ القانونى

الذى تبرزه أمريكا هو أن هذا هو الحل الوحيد للإنقاذ من الشيوعية . . فإما أمريكا أو الطوفان الذى عرفتموه فى نماذج عدن والصومال وأفغانستان وما شابهها .

وفى هذه المرحلة يمكن الاعتماد على الأقليات الصليبية والصهيونية الموالية لأمريكا فى العالم الإسلامى ، وعلى قوافل المبشرين ، وعلى أساليب الرقابة الأمريكية التى تستعين بعملاء من الداخل وبالأجهزة العلمية الحديثة أكثر مما تعتمد على جيوش وأساطيل ، كما كان الشأن فى الاستعمار التقليدى البائد ! !

نحن نعيش فى المرحلة الثانية :

ثمة عدة أحداث وتحولات مروعة قامت بها أمريكا مع حلول سنة ١٩٦٦ تكشف عن وجهها الحقيقى فى المرحلة الحالية .

فبينما كانت مصر تلملم جراحها من آثار هزيمة مروعة كان لأمريكا فيها يد طولى لا تنكر — منهية الفصل الأول من المسرحية فى هذا الجزء الحيوى من العالم الإسلامى — كان سوهارتو على الجناح الإسلامى الآخر يقف فى نوفمبر ١٩٦٧ م ليعلن ميلاد (دين جديد) يرضى أمريكا والمبشرين ، ويحل محل الإسلام ، وهو دين « البانتشاسيلا » الذى يعترف بلون من الربانية الممزوجة بالعلمانية والاتحاد بين الأديان والمساواة بينها وعبادة القومية » ومع هذا فلم يرض المبشرون بالدين الجديد ، فأطلقت السلطة أيديهم لفرض التنصير على المسلمين الفقراء على امتداد أندونيسيا ، وفى هذا العام (١٩٦٧م) — أيضاً — أوعز التخطيط الأمريكى للفاتيكان بفتح جبهة ما يسمى (بالحوار المسيحى الإسلامى) لشغل الفكر الإسلامى والعاملين للإسلام ، ولدراسة نفسياتهم وتطلعاتهم لمعرفة كيف يمكن تحويرها وإجهاضها ، وفعلا أصدرت سكرتارية الفاتيكان لشئون غير المسيحيين إثر مجمع الفاتيكان الثانى (وثيقة) بعنوان : (توجيهات لإقامة حوار بين المسيحيين والمسلمين) دعت فيها إلى الاعتراف (بمظالم الماضى) التى ارتكبها الغرب ذو التربية المسيحية فى

حق المسلمين . . لكن ماذا عن (مظالم الحاضر) المتمثلة فى زحفكم بالطائرات والمطارات ومئات الملايين من الدولارات والوسائل البشعة واللاإنسانية على مائة مليون مسلم فقير ومسكين فى أندونيسيا ؟

إن هذا لم تتكلم عنه الوثيقة . . بل كانت الهيئات التبشيرية ترفض بتعنت شديد وإذلال لنسبة ٩٥٪ من المسلمين فى أندونيسيا .. كانت ترفض وبإصرار وتحد اقتراح الرئيس (سوهارتو) الذى قاله فى حفل افتتاح (مؤتمر ممثلى الأديان) . (فى نوفمبر سنة ١٩٦٧) بألا تكون هناك أية محاولة من أية جهة (لفرض دين من الأديان على الناس) . بل إن الرئيس (سوهارتو) قد أشار على المبشرين بالعمل (وسط الجماعات البدائية التى لا تزال كثيرة فى بعض مناطق أندونيسيا) لكنهم كذلك رفضوا إلا العمل (وسط المسلمين) بالدرجة الأولى متذرعين بأن (التبشير بين المسلمين أمر إلهى ليس بمقدور البشر رفضه) وكان أكثر المتعصبين هو الكاهن (تاميونان) الذى رفض أى مهادنة للإسلام . وبعد ذلك بقليل أرسلت أمريكا (بصفة تطوع من أفراد) ثلاثمائة ألف دولار لطائفة البروتستانت الأندونيسية . . تأكيداً لاتجاه تنصير أندونيسيا ، بينما كانت وثيقة الفاتيكان تطلب من المسلمين نسيان (مظالم الماضى) وفتح صفحة جديدة ! ! !

ضربة قاضية أخـــرى :

وخطت أمريكا خطوة أخرى كبرى كانت تدبر لها فيما يبدو منذ مدة .

لقد سكتت أمريكا مؤقتا — وهو أمر لا يمكنها أن تسكت عنه إلا باتفاق مسبق — عن نفوذ روسيا فى الهند . وتركت لروسيا فرصة بيع كميات كبيرة من أسلحتها للهند . . وفى الجانب الآخر سكتت أمريكا أيضا (بغدر ونفاق) عن اتفاقية دفاع مشترك بينها وبين باكستان فأتمت — بالتالى — حلقتى الكماشة . . ولم يبق إلا التنفيذ . . الذى تم فى عام ١٩٧١ ، وقام الضباط الروس والهنود بسلخ جلود مسلمى باكستان وهم أحياء ، وقتلوا

مئات وآلافاً من العلماء والفقهاء والدعاة، حتى الدكتور (سيد سجاد حسين) عميد جامعة دكا لم يفلت من المذبحة ، وحتى الصحافى المشهور (أختر فاروق) صاحب جريدة (شنغبرام) اليومية ، لم يفلت أيضاً . والمهم أنه تم ضرب باكستان أكبر دولة إسلامية ضربة قاصمة ، وتفتتت إلى دولتين على عين أمريكا وسمعها . . وعاد وزير الخارجية (ذو الفقار على بوتو) الذى كان له شرف إعلان الهزيمة والتقسيم قبل نهاية المعركة ليصبح رئيس جمهورية باكستان ، تماماً كما عاد (حافظ الأسد) وزير دفاع سوريا الذى أعلن سقوط الجولان (قبل سقوطها) ليصبح رئيس جمهورية سوريا . . ! !

ويهمنا هنا أن نشير إلى تلك الأنشودة التى رددتها الإرساليات المعمدانية الاسترالية عقب تمزق باكستان وولادة بنجلاديش . . وفيها تقول :

- ولدت أمة جديدة اسمها بنغلادش .
- سنحت فرصة جديدة لتعليم المسلمين الإنجيل .
- لم يعد الدين الإسلامى دين الدولة .
- لقد قتل المسلم أخاه المسلم .
- لنعهد إلى أنفسنا بإقامة الصلوات من أجل التبشير . . ولنجمع المال من أجل هذه الفرصة التى أتيحت للإنجيل .

ومع ذلك يتحدثون منذ سنة ١٩٦٧ فى الفاتيكان عن (الحوار المسيحى الإسلامى) ويضحكون على المتاجرين بالإسلام وعلى المسلمين الحكوميين ! !

ضرب أفريقيا جزء من المرحلة التالية :

ويركز التخطيط الآن على ثلاث جهات :

أولاها أفريقية ، وثانيتها آسيا وثالثتها الأقليات الإسلامية فى العالم كله .

وتحتل أفريقيا أهمية خاصة لأنها كانت مرشحة لأن تكون قارة المستقبل الإسلامى . .

ويتخذ الوقوف ضد الإسلام فى أفريقيا أسلوبين : الأول هو التبشير

المباشر واستئجار حكام محليين غير مسلمين للقيام بالمهمة ، والأسلوب الثانى هو إحداث انقلابات شيوعية لكى تقوم « بإبادة الإسلام » لأن التخطيط الأمريكى يرفض أن تنسب إليه الإبادة المباشرة . . وبالتالى يلقى العبء على الشيوعيين للقيام بالمهمة المحدودة ! !

وحيثما أجلت النظر وجدت مأساة فى الخريطة الإسلامية الأفريقية .

• فى تشاد التى يبلغ عدد المسلمين فيها ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف نسمة . ويمثلون ٨٥ فى المائة من تعداد السكان .

• وفى أثيوبيا التى يبلغ عدد المسلمين فيها نحو ثمانية عشر مليونا ويمثلون ٦٥ فى المائة من تعداد السكان .

• وفى موريتانيا — جرسها الله — نحو مليون وثلاثمائة ألف ، ويمثل المسلمون مائة فى المائة من تعداد السكان .

• وفى نيجيريا « وتذكروا أحمدو بلو » حيث يقترب المسلمون من ٦٠ مليونا ويمثلون ٧٥ فى المائة من تعداد السكان .

• وفى الصومال نحو أربعة ملايين مسلم بنسبة مائة فى المائة .

• وفى السودان . (وتذكروا الجنوب اليتيم) ! !

• وفى تنزانيا « وتذكروا جوليوس نيريرى » حيث يصل المسلمون إلى نحو عشرة ملايين ، وقد تعرض علماؤهم على يد نيريرى لإبادة وحشية .

• وفى تونس وجزر القمر وإريتريا والجزائر .

وهذه مجرد نماذج تؤكد : بأن هناك سياسة الديناميت والمتفجرات والتواطؤ والدعم المشبوه . . وتتحرك الأحجار على رقعة الشطرنج وتمتص « لعبة الأمم » نسبة كبيرة من ميزانية « الأمن القومى » فى أمريكا .

وآسيا فى المرحلة الثانية أيضاً !

ويدخل تطويق آسيا الإسلامية أيضاً ضمن هذه المرحلة الثانية ، سواء على مستوى البلدان الإسلامية أو الأقليات المعرضة للإبادة .

ومعلوم أن الإسلام خسر موقعين أساسيين فى آسيا سابقا هما البلاد الإسلامية الواقعة تحت نفوذ الاتحاد السوفيتى والصين والتى تقدر مساحتها فيما بين نهرى سيحون وجيحون بمساحة الأندلس ، ثم تركيا الإسلامية بامتدادها الآسيوى فى عصر الخلافة .

وإذا اقتربنا من مواقع أقدامنا أكثر على خريطة آسيا وجدنا بلاد الشام التى حمت الإسلام فى أزمات كثيرة — مهددة هى الأخرى عن طريق (إسرائيل) حارسة التخطيط الأمريكى — للسقوط فى قاع مرحلة التطويق الكامل ، ففلسطين ولبنان قد لحقتا — تقريبا — بالمواقع التى ضاعت من الإسلام فى آسيا . وتقترب (سوريا) من نفس الخطر . وليست (عراق) ميشيل عفلق الصليبى عن هذا المصير بعيدة .

أما الأقليات الإسلامية فى آسيا فليس أسهل من ضربها بواسطة الرجال المخلصين للتخطيط الأمريكى فى الفلبين ، وبورما ، وتايلاند ، وكمبوديا ، ولاوس ، والفيتنام ، فضلا عن أن تأثير هذه الأقليات محدود جداً فى ظل التخاذل الإسلامى العام للحكومات المحسوبة على الإسلام .

ما الثمن الذى تقبضه روسيا ؟

لكن هل روسـيا من البلاهة بحيث تكون مجرد أجير للتخطيط الأمريكى بلا ثمن ؟ .

طبعا لا . . بل إن روسيا لا تقل خبثا ولا مكراً . . فهى — أولا — تعتقد أنها تروج لمذهبها من خلال « الرضا الأمريكى » وهذا مكسب كبير ، وثانياً هى أيضا لها بعض المكاسب المحدودة ، وعندها بعض العورات ونقاط الضعف التى تحتاج إلى سكوت . . والسياسة أخذ وعطاء كما يقولون .

ومعلوم أن « جيمى كارتر » منذ جاء إلى الحكم وهو يصم أذنه عن التقدم الشيوعى الذى يزداد كل يوم فى العالم وبخاصة فى العالم الإسلامى . . فى أنجولا . . فى موزمبيق . . أفغانستان . . فى عدن على مشارف البيت الحرام . . فى الصومال . . فى الحبشة . . فى العراق وفى بقاع أخرى كثيرة من العالم!

وفى داخل الاتحاد السوفيتى وحده توجد أقلية إسلامية تصل إلى أكثر من أربعين مليون مسلم ، وكانت تمثل عديداً من الشعوب ذات التراث الخاص كالتتار المسلمين والكريمين والشيش والكرك والكولاك والكالموك والانجس والألبان .

وقد حاول هؤلاء المسلمون رفع صوتهم إلى الأمم المتحدة . . لكن أمريكا كجزء من بنود اتفاقية عقد العمل — تواطأت وسكتت على إبادة هذه الشعوب المسلمة وإن رفعت العقيرة حداداً على المنشقين والمعارضين السوفيت !

وإلى جانب هذا المكسب الذى هو أيضاً مكسب—على حساب الإسلام— ولاحظ هنا اتفاق الطرفين فى الأخذ والعطاء على الإسلام وحده — هناك مكاسب أخرى تأخذها روسيا منها : السكوت عن إثارة المتاعب ضدها فى البلدان الشيوعية الواقعة تحت تأثيرها كالمجر وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية وغيرها .

ومنها إقالة عثرة اقتصادها المنهار بمليارات الدولارات والقمح والإيعاز للأصدقاء بمساعدتها اقتصاديا ، كألمانيا واليابان ، وكالتخلى لها عن بعض المواقع لكى تكسب منها بعض المليارات ، وذلك مثل إفساح المجال فى (ليبيا) وتوجيه الحكومة الليبية لشراء أسلحة تقليدية من روسيا بلغت قيمتها — كما أعلن — اثنى عشر مليار دولار ، وهو مبلغ لا بأس به !

ومن المكاسب أيضا — لاشك فى هذا — نظرية حفظ التوازن المطبقة ، سواء فى جبهة « كوبا » أو فى جبهة « الصين » و « الصين الوطنية » إلى غير ذلك من المكاسب التى لا مجال لاستقصائها . . لكنها بالتأكيد — تبعاً للغة السياسة — مكاسب متوازنة ، على حساب العالم الإسلامى المفكك المقهور ! وهو ثمن عادل يقابل (عقد العمل المؤقت) !

وفى الخطوات الأخيرة من « المرحلة الثانية » وقبيل « المرحلة الثالثة » — مرحلة الالتهام الكامل بقليل — فى هذه الخطوات الأخيرة اقتربت « الحرائق » من البيت .. من المركز الأكبر .. من القلب .. وأصبحنا لا ندرى ماذا سيحدث غداً بعد أن تلاحقت الأحداث بسرعة أكبر مما كنا نتوقع . . وتعتبر كلها (حرائق) حول البيت :

• سقوط القرن الأفريقى تقريباً . . وحرب الإبادة الكاملة ضد إريتريا . وضد الصومال الواقع تحت قبضة شيوعيين عرضوا أنفسهم على أمريكا فلم تقبلهم . . واعتذرت لأن ظروفها لا تسمح !

• سقوط أفغانستان . . الذى يمثل تهديداً خطيراً لباكستان . ولإيران التى تقف — أيضاً — كواحد من حراس الخليج ، والذى يبدو أن ثمة إجراءات أيضاً للاستغناء عن دورها عند انتهاء هذه المرحلة .

• وسقوط . . ماذا ؟

فالحق أننى لا أدرى إلى أن تصل هذه السطور للقارئ أى بلد إسلامى سيكون الدور قد أصابه . .

إنه — يا بنى قومى لو يطاع للمسلم نصح — حريق كبير . . كبير جداً حول البيت . . !

(٣)

أفريقيا المسلمة... تستغيث

أفريقيا

تقديم :

إفريقيا هذه القارة القديمة الجديدة التى تمثل مساحتها خمس مساحة الكرة الأرضية ، بينما لا يزيد عدد سكانها عن مائتين وستين مليونا من البشر . .

هذه القارة التى تبلغ هذه المساحة الشاسعة ولا يزيد سكانها عن هذه النسبة التى لا تزيد عن (١) على (١٢) من النسبة العددية لسكان المعمورة تحفل بمئات من اللغات يقدرها بعضهم بثمانمائة لغة[١] ، بينما يقدرها آخرون بألفى لغة[٢] .

أما الأديان والعقائد التى تنتظم إفريقيا فهى كثيرة لا تحصى ، وتنتظمها – تقريباً – كل العقائد التى تسود الأرض ، بل ثمة عقائد لا توجد إلا فيها .

فبدءاً من العقائد البدائية كتقديس ظواهر الطبيعة وأرواح الأجداد ، أو تقديس الأرواح والأشباح والأبطال . . وانتهاء بالمسيحية والإسلام تتجاور على امتداد القارة عشرات العقائد ، ولا يبدو خافتاً منها إلا بعض أديان الهند ، وإلا اليهودية نظراً لطبيعتها كدين قومى منغلق لا يسعى أصحابه إلى انتشاره على النحو الذى تقوم به الأديان الأخرى .

---

(١) الدكتور محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات البشرية صفحة ٢١ .

(٢) الدكتور فيليب رفله : الجغرافيا السياسية لإفريقية صفحة ٢٠٧ .

ومن بين هذا الخليط من اللغات تعتبر اللغة العربية هى اللغة الأولى فى القارة الإفريقية ، حيث يتكلم نحو تسعين مليونا بها .

كما أن الإسلام من بين هذا العدد الكبير من العقائد هو الدين الذى يحتل المرتبة الأولى ، إذ يؤمن به أكثر من ١٧٠ مليونا من السكان .

عقبات وضعها الاستعمار فى القـــارة :

لقد أيقن الاستعمار — بمنظاره التاريخى — أن إفريقية هى قارة الإسلام والعربية فى المستقبل . . وأن الديانة المسيحية واللغة الأوربية (انجليزية أو فرنسية) اللذين حملهما إلى القارة خلال فترة سيطرته عليها — ينظر إليهما على أنهما مظهران استعماريان ، وأن القارة الافريقية بعد أن تحصل على استقلالها — الذى أيقن بوقوعه — لن تلبث أن تتخلص منهما كمظهرين من مظاهر سيطرته . . وبخاصة أن ما حمله الاستعمار — سلوكاً — يتناقض مع ما يزعم أن النصرانية تحمله إلى البشرية — فشتان بين أقوال رجال الكنيسة وأفعال رجال السياسة . . بل إنه فى كثير من الأحايين كان يظهر الفرق جليا بين أقوال رجال الكنيسة أنفسهم . . والدور الذى يلعبونه كجهاز يعمل بتنسيق مع وزارة المستعمرات . . ومع المصالح « الاستراتيجية » الاستعمارية .

ومن هنا خطط المستعمر لضمان تفكك القارة الافريقية ، وتقسيمها إلى وحدات سياسية وجغرافية . . تمثل أكبر نسبة تقسيمية فى العالم . . حتى يصبح هذا التقسيم — بحد ذاته — عقبة كئوداً فى وجه المستقبل الإسلامى والعربى فى القارة الإفريقية . . .

وإذا كانت أمريكا قارة واستراليا قارة والصين التى تمثل ربع سكان العالم وحدة سياسية وجغرافية متكاملة — فإن أفريقيا — قد قدر عليها الاستعمار أن تتحول إلى أشباه دول ، تماماً مثلما فعل الاستعمار بكل المناطق التى يخاف انبعاثها — كالخليج العربى مثلا — فثمة دول فى أفريقيا لا تقترب إمكاناتها البشرية والطبيعية من كثير من المدن الانجليزية والأمريكية .

فإفريقيا الغربية — كنموذج نقدمه — قسمتها فرنسا منذ وطئتها بأقدامها إلى ثمانى دول . . أصبح كل منها عضوا فى المجموعة الدولية له ما لفرنسا نفسها وعليه ما عليها من تبعات وأعباء مع ما فى هذا من إنهاك للإمكانات . . وبعثرة للطاقة .. وضمان لمستقبل محدود هزيل . . وهذه الدول التى كانت تشكل إفريقيا الغربية هى : (السنغال ، السودان الفرنسى ، غينيا ، فولتا ، ساحل العاج ، داهومى ، النيجر ، موريتانيا) . .

ويبين الجدول التالى — وهو جدول محصور فى الدول ذات الأكثرية الإسلامية(١) — هيكل التقسيم السياسى والبشرى والجغرافى الذى أخضع الاستعمار الأوربى القارة الإفريقية له ، حتى يحول بينهما وبين أن تصير يوماً (قارة الإسلام) دينا ولغة وحضـــارة :

---

(١) رجعنا إلى أطلس العالم الإسلامى ، وتقويم البـــلدان الإسلامية وعدلنا النسبة وفقاً لمعدل النمو السكانى .

دول العالم الإسلامي المستقلة بإفريقيا

مسلسل	الدولة	عدد المسلمين	النسبة المئوية لمجموع السكان
١	الجزائر	١٥,٣٨٦٠٠٠	٪٩٨
٢	الكاميرون	٣,٣٦٥٠٠٠	٪٣٥
٣	جمهورية وسط افريقيا	٩٠٢٠٠٠	٪٥٥
٤	تشاد	٣,٤٠٠,٠٠٠	٪٨٥
٥	داهومى	١,٦٤٦٠٠٠	٪٦٠
٦	مصر	٣٣,٣٨٦٠٠٠	٪٩٢
٦	أثيوبيا	١٧,٢٨٩٠٠٠	٪٦٥
٧	جامبيا	٣٢٦٠٠٠	٪٨٥
٩	غينيا	٤٠٤٧٠٠٠	٪٩٥
١٠	غينيا بيساو	٥٦٧٠٠٠	٪٧٠
١١	ساحل العاج	٢٤٨٤٠٠٠	٪٥٥
١٢	ليبيا	٢١٧٨٠٠٠	٪١٠٠
١٣	مالى	٤٨٥٣٠٠٠	٪ ٩٠
١٤	موريتانيا	١٢٢٧٠٠٠	٪١٠٠
١٥	مراكش	١٦٨٢٦٠٠٠	٪ ٩٩
١٦	النيجر	٤٩٦٣٠٠٠	٪ ٩١
١٧	نيجيريا	٥٩٨٢٠٠٠٠	٪ ٧٥
١٨	السنغال	٣٨١٩٠٠٠	٪ ٩٥
١٩	سيراليون	١٨٠٠٠٠٠	٪ ٦٥
٢٠	الصومال	٣٩٥٠٠٠٠	٪١٠٠
٢١	السودان	١٤٣٧٥٠٠٠	٪ ٨٥
٢٢	تانزانيا	٩٣٤٦٠٠٠	٪ ٦٥
٢٣	توجو	١١٦٦٠٠٠	٪ ٥٥
٢٤	تونس	٥٣٤٥٠٠٠	٪٩٥
٢٥	فولتا العليا	٣٨٧٩٠٠٠	٪ ٥٦
٢٦	أرتيريا	٢,٠٠٠,٠٠٠	٪ ٨٥
٢٧	جزر القمر	٢٨٥,٠٠٠	٪ ٩٥

ويضاف إلى هذه الدول ذات الأغلبية الإسلامية — ما يربو على ثلاثين مليونا من المسلمين يمثلون أقليات تتناثر هنا وهناك بباقى الدول الافريقية، ويمكن حصرهم على النحو التـــالى[1] :

مسلسل	البـــلدان	عدد المسلمين	نسبة المسلمين المئوية
١	ليبيريـا	٧٧٠,٠٠٠	٣٠٪
٢	غـــانا	٢,٢٥٠٠٠٠	٣٠٪
٣	الجـــابون	١٩٥,٠٠٠	٤٠٪
٤	الكونغو برازفيل	١٤٠,٠٠٠	١٥٪
٥	أوغنـــدا	٢,٥٠٠,٠٠٠ تقريبا	٤٠٪
٦	غينيـــا	١,٧٠٠,٠٠٠٠	٢٠٪
٧	موزمبيق	١,٧٥٠,٠٠٠٠	٢٥٪
٨	ملاجـــاش	١,١٥٠٠٠٠٠	٢٠٪

وكما أخضع الاستعمار القارة لهذا التقسيم الجغرافى والسياسى ، فإنه أخضعها لعديد من المظاهر الشاذة التى تنفرد بها إفريقية من بين قارات الأرض الأخـــرى :

فهناك أكثريات إسلامية فى أكثر من بلد إفريقية يتولى أمرها حكام غير مسلمين ، تربوا فى أحضان الكنيسة ، وتغذوا بلبانها .

وهناك شعوب إفريقية يوجه سياستها — بل ويحكمها فى بعض الأحيان حكماً مباشراً — أوربيون — أو تلامذة للتبشير وللكنيسة ومعاهد العلم الغربى .

وهناك تفرقة عنصرية تنطلق من تلك النظرية الغربية التى احتلت مكانا بارزا فى الفكر الأوربى وهى نظرية (سيادة الرجل الأبيض) وأفضليته — أفضلية جنسية مطلقة — على الرجل الأسود .

---

(١) انظر الهامش السابق .

وحول قضية التفرقة العنصرية — التى لا تبرز على نحو عملى عميق — إلا فى القارة الإفريقية يقول الرئيس « أحمد سيكوتورى » ساخراً من أولئك الأوربيين الذين اندفعوا إلى إفريقية بمساطر وأقلام يقيسون بها الجماجم والقسمات ، ويقررون بناء على هذه المقاييس الظالمة « أن الرجل الأسود مكانه فى عالم الحيوان بين الشمبانزى والجيبون أى القرود شديدة الشبه بالإنسان » .

ويبين الرئيس سيكوتورى أن لون البشرة ليس سوى واقع يطابق ظروف الهيئة ، ثم يتساءل : هل جميع الأبقار لها لون واحد ، وهل تفضل البقرة البيضاء زميلتها الحمراء أو السوداء ؟ والإجابة بالنفى بالتأكيد[1] .

ومع ذلك فالتفرقة العنصرية حقيقة يفرضها الاستعمار على أجزاء متعددة من إفريقيـــا .

وهناك إلى جانب هذه المظاهر الثلاثة الشاذة — الوضعية الاقتصادية المتخلفة التى فرضها الاستعمار على إفريقية ، حين حرم عليها التصنيع وحولها إلى بلاد منتجة ومصدرة للمواد الأولية بأرخص الأسعار — وهى مستوردة — فى الوقت نفسه — لهذه المواد نفسها بعد تصنيعها فى أوربا — بأغلى الأسعار[2] « ومن العجيب أن إفريقيا الخصيبة أصبحت فى ظل الاستعمار محتاجة إلى المواد الغذائية لتستوردها من الخارج ، وذلك أن الجهود اتجهت فى الحقل الزراعى إلى إنتاج الحاصلات التى تصدر لا الحاصلات التى تستهلك محليا . وعلى هذا اتسعت مزارع البن والقطن والشاى والكاكاو اتساعا كبيراً ، وترك الأفريقيون يعانون نقص الغذاء (...) ولا يتمكنون بوسائل حديثة من صيد البحر . . كما يحرم عليهم صيد البر ، إذ كان الأوربى فى الغابات التى امتلكها هو القادر وحده على صيد الحيوانات البرية »[3] .

---

(١) أحمد شلبى موسوعة التاريخ الإسلامى الجزء السادس ٦٨٣ .
(٢) الأستاذ كامل الشريف : المغامرة الإسرائيلية فى أفريقيا صفحة ٩٠ .
(٣) بتصرف من المرجع رقم (١) صفحة ٤٦٤ .

وفى ظل هذا يعتبر الفقر الشديد الذى يصل إلى حد المجاعات وما يتبعها من ضعف صحى وانتشار للأمراض والأوبئة – أحد المظاهر البارزة التى فرضها الاستعمار على إفريقية .

ويعبر الرئيس « جومو كنياتا » عن هذا الوضع الاقتصادى فى مقاله المنشور – فى عدد عام ١٩٧٠ من كتاب العام للموسوعة البريطانية . . فيقول : « إن هدف سياستنا الأساسية أن نهىء للأغلبية العظمى من شعبنا أرضاً يزرعونها وبيوتاً يملكونها وأعمالا ثابتة يرتزقون منها – وحين نستطيع أن نفعل ذلك فإن الاستقرار يمكن أن يسود القارة »[1] .

وكما فرض الاستعمار الفقر المدقع ، فرض الجهل الشديد أيضاً ، ولم يسمح إلا بحجم ضئيل من الثقافة ربطه بمخططاته وأهدافه ، بحيث يصبح هذا (الشبه مثقف) الإفريقى مسخاً مشوهاً مبتور الجذور . . لا يصلح أوربيا ، ولا ينتمى إلى إفريقيا ولا بيئتها . . لا بالنسبة لواقعها الحاضر . . ولا بالنسبة لآمالها فى المستقبل .

الخطـــر الاستعمارى الكبير على الإسلام فى أفريقيـــا :

وثمة خطر كبير – يضاف إلى ملامح الصورة التى فرضها الاستعمار على إفريقيا – يتمثل فى هذه الجيوش التبشيرية الملفعة بأردية « النصرانية » والتى يتولى الإنفاق عليها سائر الدول الاستعمارية الكبرى . . تلك التى كان لها نفوذ فى القارة ، أو التى تطمع فى أن يكون لها نفوذ .

إن أغنى دولة فى العالم هى الفاتيكان ، وإن ميزانية هذه الدويلة التى تمثل مجرد جزئ من أجزاء إيطاليا تنفق كلها فى الأغراض التبشيرية – ويوجد تحت تصرف البابا وحده ما يزيد على خمسمائة مليون دولار ، يستطيع الإنفاق منها على أى غرض تبشيرى فى بلاد الإسلام[2] .

---

(١) الأستاذ كامل الشريف : المغامرة الإسرائيلية صفحة ٩٠ .
(٢) انظر المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام : محمد الصواف ١٩٠

وتصدر عشرات من الصحف التبشيرية باللغات الحية تباع بثمن رمزى ، وتهدى فى أغلب الأحايين لمن يظن فيهم ضعف الإيمان من المسلمين .

ويقدر ما تنفقه الإرسالية الانكليزية الأهلية وحدها فى السنة بمليون جنيه استرليني ، كما يقدر ما تنفقه الإرسالية الأمريكية بثلاثة ملايين . . وكلها تنفق تحت اسم « مكافحة الإسلام » .. وناهيك بالإنفاقات الحكومية الرسمية فهى تصل إلى أرقام خيالية ، و تمتد إلى أكثر من مجال ، وتلبس أكثر من قناع .

وقد نشرت المجلة التبشيرية الألمانية أن عدد جيش المبشرين البروتستانت وحدهم هو ١٠٤ آلاف مبشر .

ويبلغ عدد النساء والرجال من موزعى التوراة والأناجيل المشتركين فى التبشير عدداً ما يقترب من ٩٣,٠٠٠ ، وعدد المعاهد الكنسية ١٧,٦٧١ معهداً ابتدائياً ومتوسطا وثانوياً .

ويخضع لسلطة التبشير أكثر من خمسمائة جامعة وكلية ومعهد عال — كما يخضع لسلطتهم ٤٨٩ مدرسة لاهوتية متخصصة فى تخريج المبشرين وتدريبهم على أعمال التنصير . .

وتحت سلطة التبشير أيضاً — ٢٥٩٤ مدرسة ثانوية ، ٨٣٩٠٠ مدرسة ابتدائية ، و ١١١٣ روضة أطفال ، وتفوز أفريقيا من هذه الاحصاءات بأكبر نصيب .

وفى الجانب الطبى والاجتماعى — وهو من أهم وسائل التبشير — يملك المبشرون ٦٠٠ مستشفى للرجال والنساء ، ١٠٥٠ صيدلية توزع الدواء بالمجان ، و ١١١ مجلسا طبيا ، ٩٣ جمعية للممرضات ، و ٢٦٥ ملجأ للأيتام ، و ١٢٠ ملجأ للبرص ، ومثلها للصم والبكم ، و ١١٥ مدرسة للمكفوفين ، و ١١٣ مستوصفا لمدمنى الأفيون ، و ٨٥ ملجأ للأرامل . .

والتبشير يلجأ لكل الأساليب التقليدية والعصرية . .

فالمدارس والمستشفيات والمعونات الاقتصادية والصحف والإذاعات والكتب والملصقات . . . كل هذه — وغيرها — يلجأ إليها التبشير . .

وهو يقوم بعمله فى عدة مستويات مختلفة . .

فهناك تبشير على مستوى الأفراد .. وهناك تبشير على مستوى الجماعات، وهناك تبشير صامت يلجأ إلى الكتاب والصحافة وأساليب التشكيك والدس المنسوب زوراً إلى العلم — وهناك تبشير آخر خطير يستغل الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تمر بها القارة . . فيقوم بدوره من وراء الكواليس فى شكل اتفاقيات سياسية أو اقتصادية . . كما يستغل الحقائب الدبلوماسية . . .

والغريب فى وضع التبشير — فى إفريقيا — أنه قد لجأ فى آخر تطوراته إلى أسلوبين :

أسلوب التعاون مع الوثنيات الموجودة فى القارة . . حتى يتمكن فى المرحلة الأولى من التخلص من الإسلام وهو المنافس القوى . . وبالتالى فهو يتبنى مواقفها السياسية والاجتماعية ويمدها بكل وسائل الدعم ، ويساعد على انبعاث نعراتها الإقليمية والقومية ولغاتها المحلية ، بل وعاداتها وتقاليدها الوثنية ما بقى منها وما اندثر .

والأسلوب الثانى هو أسلوب التعاون مع اليهود . . . وهو تعاون سعى إليه الطرفان معاً . . . سعت إليه إسرائيل . . وسعى إليه التبشير . . انطلاقا من وحدة الهدف . . الذى هو الإسلام فى إفريقيا . . ذلك الإسلام الحركى الذى كان بالنسبة للأفارقة الوقود الذى يندفعون به باحثين عن وجودهم وحريتهم ، والحضارة التى يشعرون من خلالها بشخصيتهم واستقلالهم .

ومع أن بين النصرانية واليهودية حرباً تاريخية لم تهدأ إلا أخيراً فإن المبشرين واليهود يتحدون — مرحلياً واستراتيجيا — ضد الإسلام الذى يوشك أن ينتظم القارة الإفريقية كلها .

ومن تكرار القول أن نتحدث عن الصلة بين اليهود والنصارى — أو بين إسرائيل والاستعمار — فى العصر الحديث — ذلك لأن البحث يعود بنا إلى نشأة الدولة اليهودية والظروف التى أحاطت بها ، وهو بحث كثير التشعب ، وليس هنا مجاله على كل حال ، غير أن دور إسرائيل فى إفريقيا إنما هو امتداد للمهمة التى أوجدها الاستعمار الصليبى من أجلها ، فى الشرق العربى ، وهذه المهمة هى عزل الشعوب العربية فى آسيا عن الشعوب العربية فى أفريقيـــا(١) .

وفى ذلك ما فيه من إضعاف للكيان العربى فى إفريقيا . . الذى هو وسيلة إيجاد الكيان الإسلامى الإفريقى ، وهو المدخل الطبيعى لإيجاد إفريقيا مسلمة عربية ، تحقق حلم أجدادنا المرابطين من أحفاد عبدالله بن ياسين ، ويوسف ابن تاشفين . . . هؤلاء الذين بذلوا دماءهم وأموالهم فى سبيل أن تصبح إفريقيا قارة إسلامية .

ماذا يريد الغرب من هذه الغارة التبشيرية على العالم الإسلامى ، وعلى إفريقيا بخاصة ؟

إن النصرانية لا وجود لها فى الشارع الغربى ولا فى المصنع أو المعمل أو المحكمة أو البنك . . وحتى الكنيسة أصبحت مؤسسة اجتماعية تشبه مؤسسات وزارات الشئون الاجتماعية . . لقد تركت أوربا النصرانية منذ قامت نهضتها الصناعية على أساس الشعار القائل : « اشنقوا آخر إقطاعى بأمعاء آخر قسيس » .

إن الإنسان الأوربى الحديث . . « والتركيبة » الفكرية والحياتية الأوربية لا تعطى قضية الدين أى حجم حقيقى فى صياغة الفكر أو الحياة . .

فما معنى هذا الذى يفعله المبشرون فى إفريقيا ؟

---

(١) انظر : كامل الشريف المغامرة الإسرائيلية فى إفريقيا ص ٦٢ .

وهؤلاء المبشرون أنفسهم ليسوا نموذجاً لدعواتهم التي يقدمونها إلى الناس . . فكثيراً ما غادر المبشر جمعية إلى جمعية أخرى سعياً وراء الكسب المادي . . والمبشر « وليم بلغرايف » الإنجليزي تقلب من البروتستانتية إلى اليسوعية ، ولما استغنى عن اليسوعيين عاد بروتستانتيا . . وقد ذكر المفكر (جب) أنه قد ثبت على اليسوعيين أنهم فصحوا فتاتين من طائفة الأرثوذكس وأخفوهما حينا ثم اضطروا إلى إعادتهما لأهلهما .. ويهاجم (جب) نظام الأديرة كله . . ويقول : إن بعض هذه الأديرة كان مستقراً للفاحشة(١) . . .

فما معنى هذه الجيوش التبشيرية الداعية إلى النصرانية في إفريقيا ؟

أليس الأولى بها أن تدعو الشيوعيين في المعسكر الشرقي إلى العودة إلى حظيرة الإيمان ؟ (بدل أن تتعاون مع الشيوعيين الملاحدة في كثير من الأحايين) .

أو ليس الأولى بها أن تدعو الأوربيين أنفسهم إلى إعطاء الدين حجماً أو زاوية مؤثرة في الحضارة الأوربية التي يهددها الإفلاس الروحي بالدمار ؟

إن التبشير وهو كما ذكرنا أحد الأخطار الاستعمارية المحدقة بالمسلمين في إفريقيا اليوم — ليس دعوة إلى النصرانية . . بقدر ما هو إيقاف للزحف الإسلامي وتعكير لصفوه . . وتأخير ليوم تصبح فيه إفريقية قارة إسلامية . .

إنه أكبر سلاح يستعمله الأوربيون المستعمرون اليوم في هذه القارة للحيلولة دون تقدم القارة علميا أو اقتصاديا أو سياسياً . .

إنهم يقدمون النصرانية كبش فداء . . ليس حبا فيها . . ولكن لأنها الدين الذي يملكونه .. والذي يمكن أن يقف — قليلا — أمام الزحف الإسلامي .

إن المرء ليضحك وهو يتذكر أن « اللورد اللنبي » الذي كان قائد الفيالق الإنجليزية للقدس وصاحب الكلمة المشهورة : « الآن انتهت الحروب الصليبية » كان عضواً كبيراً في جمعية إلحادية .

---

(١) التبشير والاستعمار : د. عمر فروخ ٣٥ ، ٣٦ .

وإيطاليـــا التى ناصبت الكنيسة العداء ، وحجزت البابا فى الفاتيكان ، كانت تبنى سياستها كلها على جهود المبشرين والرهبان . . والذين زاروا إيطاليا يعرفون أنه على مقربة من الفاتيكان وحوله من الجهات الأربع تعيش إيطاليا حياة انحلالية بوهيمية لا مكان للدين فيها . .

وأكثر مدعاة للدهشة من هذين المثالين موقف « ستالين » (زعيم الشيوعية الدولية) حين دعا إلى مجمع مسكونى فى موسكو . . وقد شرف ستالين نفسه المؤتمرين بمقابلته . .

وفى الجزائر المجاهدة . . جزائر المليون ونصف المليون شهيد — كانت فرنسا تترجم عن عملية صليبية حاقدة ضج منها الضمير العالمى(١) . . ومع ذلك فليس للدين حجم حقيقى فى داخل فرنسا . .

— فما معنى هذا كله . . ؟

— هل النصرانية مجرد بضاعة للتصدير ؟

— نعم إنها لكذلك فعلا . . .

— إنها مجن واق من أخطار الزحف الإسلامى . .

— إنها ستار يراد منه أن يمنع شمس الإسلام من الظهور . .

— إنها تراث حضارى يرشح للوقوف فى وجه تراث الإسلام وحضارته .

— إنها — فى أقل حالاتها — صورة (دين) يمكن أن يحارب بها (دين) آخر . . حيث ثبت — تاريخيا — أنه لا يقف أمام الدين إلا الدين — ولا يفل الحديد إلا الحديد . . والبقاء للأصلح فى نهاية المطاف .

ولمزيد من الوضوح حول دور التبشير التخريبى فى إفريقيا (وهو الدور الوحيد الذى رسم له) دعنا نسرد هذا الحوار الطريف الذى دار بين « لويس لومكس » الصحافى الأمريكى — فى كتابه (الإفريقى النافر) — وبين « سيلونديكا عضو اللجنة التنفيذية للحزب الديمقراطى فى روديسيا الجنوبية سابقا » .

---

(١) التبشير والاستعمار : د . عمر فروخ ص ٣٥ ، ٣٦ .

سأله الصحافى الأمريكى قائلا :

هناك تقارير منتظمة تؤكد أن المسيحية تنحسر عن إفريقيا . . . هل هذا صحيح ؟

الزعيم الافريقى : نعم صحيح . . فالكنسة لم تلعب دوراً سايا فى الشئون الإفريقية . . لقد وقفت ضدنا إلى جانب هؤلاء الذين استعبدونا . . إنها اليوم تقف على قدمها الأخيرة فى إفريقيا . .

– الصحافى الأمريكى : هل أنت مسيحى ؟

– الزعيم الأفريقى : نعم أنا كاثوليكى تعلمت فى كلية « حاريان » فى ناتال بجنوب إفريقيا . . وأنا طبعاً لم أنضم للكنيسة لدوافع سياسية ، بل عن اعتقاد روحى . . ورغم ذلك شعرت بأن الكنيسة خذلتنى . . إن الإسلام سينتصر فى إفريقيا ، وبالرغم من أننى كاثوليكى إلا أننى أستطيع أن أقول مخلصا : إننى آسف لتطور الأحداث (لصالح الإسلام) . . إننى أفهم أن الدين يشكل جانبا حاسما من قيم الإنسان ، ومن ثم . . يدفعه إلى الحرية . . وهذا ما فشلت فيه الكنيسة . . لقد أعطتنا كل شيء ما عدا الحرية »(١) .

إن التبشير – كما نرى من هذا الحديث الواضح – ليس أكثر من واجهة مزيفة من تلك الواجهات الكثيرة التى يخفى بها الاستعمار مخالبه الحقيقية وأطماعه ، وهو بهذا خطر حقيقى كبير بالنسبة لمستقبل أفريقيا المتحررة . . وبالنسبة لمستقبل من يهمهم أمر الإسلام والتعريب فى هذه القارة العذراء .

اليهــود فى أفريقيــا :

ولئن كان التبشير النصرانى فى إفريقيا يشكل جزءاً من ملامح الصورة القائمة التى تعكر صفو (الإسلام فى إفريقيا اليوم) – فإن اليهود يشكلون بعداً آخر من أبعاد الجزء القاتم فى الصورة .

---

(١) نقلا عن الغزو الفكرى . . لمحمد جلال كشك صفحة ٥٠ وانظر التبشير وجذوره التاريخية مقال بمجلة التضامن الإسلامى عدد أكتوبر ١٩٧٥م لعبد الحليم عويس .

وبعد استقلال كثير من الدول الإفريقية ، ذهبت إسرائيل تعرض خبرة اليهود فى العالم وأموالهم لمساعدة هذه الدول .

واليهود عن طريق العلاقات السياسية والتجارية واستغلال الإعلام والدبلوماسية المرنة – يحققون أغراضهم فى كسب بعض الحكام الأفارقة ، لدرجة أن جريدة نيجيرية كتبت بتاريخ ١٣ أكتوبر ١٩٦٢ تقول بأن أية دولة فى الشرق أو إفريقية لا تستطيع مساعدة نيجيريا ماعدا إسرائيل .

وثمة تعاون قائم بين إسرائيل وبعض الحكام الأفارقة – إن لم يكن بشكل سافر سياسى أو إعلامى أو عسكرى أو ثقافى – فهو بشكل سرى ، وبخاصة فى المجالات التجارية والثقافية .

ولئن كانت بعض الدول الإفريقية قد غيرت موقفها من إسرائيل بعد ظهور طابعها الاستعمارى وهزيمتها فى حرب رمضان ١٣٩٣ ﻫ . فإن دولا أخرى لا تزال تربط نفسها بإسرائيل . . ومنها أثيوبيا وغانا وروديسيا وتنزانيا . . . وإسرائيل تستغل الوضع الاقتصادى الإفريقى المتخلف ، وتقوم بتعليب كثير من اللحوم والفواكه وغيرها من المواد الإفريقية الخام كما تستورد الخشب والماس ومواد السماد . « ولقد اهتم الإسرائيليون اهتماما خاصا بإقامة الفنادق وأماكن اللهو وسيطروا عليها إداريا ، وسخروها لأغراضهم السياسية والاقتصادية ، وكان يختفى وراء مظهرهم البرىء شر أنواع النشاط السرى المخرب »(١) . إن إسرائيل لن تترك إفريقيا للعرب والإسلام بسهولة . كما أن المد الحضارى لا ينتشر بالعواطف والمجاملات . وبالتالى فيجب أن نخطط بجدية وسخاء لضمان إنقاذ إفريقيا من اليهود والصهيونية ، وسيرها فى ركاب حضارة الإسلام .

الشيوعية فى إفريقيا :

تمثل الشيوعية خطراً داهما بالنسبة للإسلام فى إفريقيا – يسىء إلى ملامح صورة الإسلام فى إفريقيا اليوم .

---

(١) كامل الشريف : المغامرة الإسرائيلية على أفريقيا صفحة ١١٦ ، ١١٧ .

فإفريقية المسلمة . . قارة المستقبل الإسلامى . . تغزوها الشيوعية فى بعض أركانها ، وذلك حين يبدو أن التبشير لن يستطيع الصمود أمام الإسلام ، وحين يبدو أن النفوذ اليهودى لا يستطيع القيام بالغرض - وإن ما حدث فى أثيوبيا - بعد « هيلاسلاسى » الذى لم يتمكن من عمل كل شىء وبخاصة القضاء على مسلمى أرتيريا - لدليل ناصع على أن الشيوعية هى البديل الثالث الذى يتقدم به اليهود والتبشير ، حين يبدو لهم أن الطريق للقضاء على الإسلام مسدود . ولسنا نفصل ما جرى فى الصومال عما جرى فى أثيوبيا ، كما لا نفصل ما جرى فى تانزانيا (زنجبار وتنجانيقا) حين قتل عشرات الألوف من العرب والمسلمين - باسم التقدمية الشيوعية(١)- واعترف بإسرائيل ودعيت « جولدا مائير » لزيارة تانزانيا - لسنا نفصل كل ذلك عن حقيقة الدور الذى تلعبه الشيوعية فى إفريقيا .

وإنه لمدعاة للتساؤل أن يكون أكثر الزعماء الشيوعيين الذين ظهروا فى إفريقيا ذوى علاقة طيبة بإسرائيل . وكان أكثرهم ينظر إلى إسرائيل على أنها تجربة تقدمية يجب أن يحتذى بها - والنظر إلى انتصارها على العرب على أنه انتصار للتقدمية على الرجعية(٢) .

فالشيوعية عائق من المد الإسلامى فى إفريقيا ، وهى عنصر من ملامح الجزء القاتم الذى يعكر صفو إفريقيا اليوم .

مكانة الأمة العربية فى إفريقيا اليوم :

تختلف الوضعية الإفريقية الشعبية عن الوضعية الإفريقية الرسمية أو الوضعية التى يريد التبشير واليهود أن يصلوا إليها .

فالحقيقة أن القاعدة الشعبية فى إفريقيا ما زالت إلى حد كبير . . تنتمى إلى العربية . . لغة وفكراً . . وإلى الإسلام دينا وحضارة .

---

(١) انظر محمود شاكر : تانزانيا صفحة ٣٤ .
(٢) انظر كامل الشريف : المغامرة الإسرائيلية صفحة ٩٤ وما بعدها .

وإذا ما استثنينا البلدان العربية الإفريقية (مصر والسودان والجزائر والمغرب وليبيا وتونس والصومال وموريتانيا) نظراً لأن العربية هي اللغة الرسمية فيها — فإن بقية البلدان الإفريقية — وبخاصة الإسلامية منها — تعتبر اللغة العربية لغتها الدينية والفكرية والحضارية على الأقل ، على المستوى الشعبي . .

في الحبشة ، حيث يمثل المسلمون ٦٥٪ وفي أرتيريا ، حيث يمثل المسلمون ٨٠ ٪ نستطيع أن نقول : إن اللغة العربية هناك هي إحدى اللغات المعروفة لأغلب السكان ، ويمكن التعامل بها في الأسواق ، فضلا عن دور العلم والمساجد . وعند مقارنة اللغة (التجريطية) المستعملة في أريتريا كلغة محلية ، سوف نكتشف أنها اقتبست كثيراً من اللغة العربية ، حتى إن الأعداد المستعملة فيهما تبدو وكأنها شيء واحد(١) .

وفي كينيا حيث العراقة الإفريقية الأصيلة ، وحيث تسود اللغة الساحلية وتجاورها لغات كثيرة تزيد على سبعين لغة ، فلكل قبيلة لغة خاصة تشبه اللهجة ومع ذلك فإن العربية تحتل مكانا بارزا بحيث إن اللغة الساحلية هذه تعتمد في حوالي خمسين في المائة من كلماتها على العربية إما أصلا ، وإما اشتقاقا ، ولهذا فلم يكن غريباً أن تقر وزارة المعارف الكينية مؤخراً تدريس اللغة العربية رسمياً بمدارس الساحل الكيني ، كما أنها أقرت اختبار الطلاب رسميا في مادة الدين ، وقد أبدت استعدادها لقبول أكبر عدد ممكن من المدرسين للغة العربية والدين الإسلامي ، شريطة أن تتكفل الحكومات العربية بالتكاليف والمرتبات (على نحو ما يفعل المبشرون)(٢) .

وفي أوغندا يتكلم الناس لغة ساحلية خاصة بهم تختلف عن ساحلية كينيا ، وهي مزيج من لهجات « البانتو » مع اللغة العربية(٣) .

---

(١) راجع محمد العبودي : في أفريقيا الخضراء صفحة ٩١ وما بعدها وانظر صفحة ١٥٨ وصفحة ١٨٦ ، ١١٨٣ عن العربية في الحبشة .

(٢) المرجع السابق صفحة ٣٦١٢ .

(٣) انظر تقرير رابطة العالم الإسلامي بالمملكة العربية السعودية المنشور بالصحف المحلية (عن كينيا) في السعودية .

ومع أنها ساحلية أوغندية خاصة ، فإنها تكتب بالأبجدية العربية ، مما يدل على التأثير القوى للغة العربية فى أوغندا ، هذا فضلا عن أن المسلمين فى أوغندا (وهم قريبا سيشكلون الأغلبية السكانية إن شاء الله — نظراً للمد الإسلامى على عهد الرئيس « عيدى أمين » — يحرصون جميعاً على تعلم اللغة العربية(١) .

وهكذا — نستطيع القول (من خلال هذه النماذج) : إن للغة العربية أرضية كبيرة فى إفريقية منذ دخلت فى ركاب الدعاة والتجار المسلمين وأصبحت لغة الأدب والعلم والتعامل ، ويكفى — فى نهاية حديثنا عن اللغة العربية فى إفريقيا — أن ندلل على عمق هذه اللغة ، فنذكر أن أهم المراجع التاريخية « كأضابير أشانتى » « وكانو » فى إفريقية الغربية ، ومحفوظات « كلوة » فى إفريقيا الشرقية أكثرها باللغة العربية ، حتى قال بعض الكتاب الأوربيين معبراً عن معنى ارتباط إفريقية بالعربية لغة وحضارة : « إننا إذا نزعنا الوثائق التاريخية المكتوبة باللغة العربية لا يبقى ثمة تاريخ يعتد به لإفريقيا السوداء » .

وقد قال أحد وزراء زنجبار فى ذلك : « يكفى للتدليل على مكانة لغة العرب بالنسبة لإفريقيا أن نعلم أنه لا يوجد فى اللغة السواحلية كلمة مرادفة لكلمة تحضير أو تمدين سوى كلمة « تعريب » ، فإذا أردنا أن نتحدث عن مشروع لتطوير قرية زراعية قلنا : تعريب تلك القرية » .

وهذه الكلمة الواحدة تصلح نافذة عريضة على تاريخ مجيد طويل(٢) .. إنه تاريخ علاقة إفريقيا بالعرب حضارة ولغة ومصيرا ودينا .

الإسلام فى إفريقيا اليوم :

ليس ثمة شك فى أن الإسلام فى إفريقيا يعيش اليوم بين مد وجزر .. أو بتعبير آخر : بين (محنة ومنحة) .

---

(١) انظر محمود شاكر : أوغندا صفحة ٤٨ .

(٢) انظر (بتصرف) كامل الشريف : المغامرة الإسرائيلية فى أفريقيا صفحة ١٧٠ وما بعدها .

(ومحنة الإسلام) فى إفريقيا تتركز فى عدة مواطن منها

أولا : فى جنوب السودان . . . فهذا المدخل الطبيعى الذى كان بالإمكان أن يصبح إحدى بوابات الإسلام إلى إفريقيا – قد أصبح مسرحاً لنفوذ المبشرين ، وللموالين لهم ممن يجاورون السودان .

فبعد الاتفاق الذى تم بين الشمال والجنوب فى مؤتمر « أديس أبابا » الذى عقد فى مارس ١٩٧٢ بإشراف المنظمات الكنسية والفاتيكان . فتح الباب على مصراعيه للمبشرين . ويقينى الجازم أن المبشرين سيتمكنون من إقامة دولة مسيحية فى جنوب السودان تكون إحدى منطلقاتهم لقلب إفريقيا – وذلك ما لم ينهض العرب لدرء هذا الخطر .

كما أن التبشير قد نجح من وراء هذه الاتفاقية فى قهر الحركات الإسلامية فى أرتيريا وتشاد . . فهاتان الثورتان تعيشان منذ الاتفاقية مرحلة اختناق حاد مرير .

ثانياً : فى الصومال . . حين وقع الانقلاب العسكرى الشيوعى فى ٢١ أكتوبر . ولم يكد يمر عام حتى أعلن قائد الانقلاب محمد زياد برى فى عيد الانقلاب الأول – اعتناقه وحكومته للمبدأ الماركسى اللينينى . وتفسير الإسلام تفسيراً ماركسيا . . وإخضاع عقيدة الإسلام وأصوله للماركسية ، وتبع ذلك استحداث تنظيمات ومعاهـد همها إنشاء شبيبة شيوعية ترفض الإسلام وتعلن الحرب عليه – كما أصدرت الحكومة مرسوما فى سنة ١٩٧٢ يقضى بهدم كل المدارس القرآنية . واستمر الحال على هذا المنوال . . حيث تزحف الشيوعية فى كل يوم على أجساد مئات العلماء وآلاف المجاهدين ، مستعملة أبشع وسائل التنكيل التى عرفها التاريخ .

وكما هو المتوقع فإن الحكومة الشيوعية فى الصومال تعوق – من جانبها وفى حدود تأثيرها – كل مد إسلامى إلى إفريقيا . . وتتبنى بديلا عنه كل ما هو ماركسى وتخدم مصالح أصحاب المذهبية الماركسية . وإننى من جراء هذا لأعتقد بأن الماركسية هى الخط الأول الآن لتحقيق كل أهداف الصهيونية

والتبشير ، وهى المعهد الحقيقى لاستيلائها على أرض الإسلام – لاقدر الله .

ثالثاً : فى تنزانيـــا ،

فمنذ وقع انقلاب ١٩٦٤ م وخلع السيد « جلمشيد بن عبد الله » . . .

ومنذ قتل فى ساعات محدودة (ستة عشر ألف عربى) ، كما لقى سائر المسلمين شتى أنواع التعذيب ، ولقى ٥٤ ألفا حتفهم .

منذ هذا اليوم الذى تبعه زوال شخصية بلد إسلامى عزيز هو (زنجبار) حرسها الله – أصبحت كلمة الإسلام – وأصبح العرب واللغة العربية – جرائم يحاسب عليها القانون . . والمجال لا يتسع لتتبع صور اضطهاد الإسلام والعروبة فى تنزانيـــا . .

رابعاً : فى تشـــاد ،

وفى تشاد حيث تصل نسبة المسلمين فى بعض المصادر إلى ٩٢ ٪ (وليس لهم فى الحكم إلا ٢٠٪ فقط من المقاعد الوزارية) – تتعرض الجماهير المؤمنة – والشخصيات الإسلامية – لاضطهادات متلاحقة ، كما يتعرض المسلمون جميعاً لضغوط الضرائب والاعتقالات والحرمان من الحقوق السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية .

وقد فشلت انتفاضة المسلمين ضد أنواع المظالم المحدقة بهم فى سنة ١٩٦٥ م – فكانت انتفاضتهم الفاشلة بابا جديداً فتح عليهم أبواب التنكيل والتعذيب ، لدرجة استجلاب قوات فرنسية لإبادتهم ، مع ملاحظة أن نسبة الحاكمين المسيحيين لا تعدو (٤٪) من السكان .

والشعب التشادى المسلم بقيادة جبهة التحرير الوطنى التشادى التى تأسست سنة ١٩٦٦ م – لا زال يكافح لإعادة الأوضاع إلى نصابها – وفقاً لما يتشدق به المسيحيون كذبا – حول حقوق الناس والأغلبية فى الديمقراطية والحرية والوصول إلى الحكم . .

لكن الحقيقة الثابتة أن الديمقراطية يحاربها النصارى أنفسهم إذا كانت لمصلحة الإســـلام . .

خامساً : أما أثيوبيا . . ومأساة المسلمين فى أرتريا . .

فالمسلمون – هناك – محرومون من أبسط الحقوق الإنسانية .

فبقرارات رسمية يمنع دخول المدرسين المسلمين إلى أثيوبيا وأرتيريا ، وتفرض رسوم جمركية عالية على الكتب الإسلامية ، ويلاحق الإسلاميون لإسلامهم ويزج بهم فى السجون ، ولا يعترف لهم بشهاداتهم التى حصلوا عليها من المدارس الإسلامية .

وقد ألغيت اللغة العربية . . فى المدارس . . وفى المصالح والمؤسسات الحكومية . وتلجأ الحكومة إلى بث جاسوسية محكمة حول المسلمين ، والشخصيات الإسلامية المثقفة . . سواء من هم من الوطنيين أو من هم من الوافدين – لضمان وأدها للإسلام واللغة العربية . . كما أنها تحرص حرصا شديداً على إبعاد المسلمين عن الدوائر الحكومية ، وتشجيع « البغايا » على الهجرة والانتشار فى المدن الإسلامية على امتداد أثيوبيا وأريتريا . . بل إن الحكومة لترفض مجرد إقامة علاقات دبلوماسية مع الدول التى تشعر بتمسكها بالإسلام ، وترفض السماح للطلاب الأرتريين والأثيوبيين بقبول المنح التى تقدم لهم من بعض الدول الإسلامية ، وتبذل – إلى جانب ذلك – تسهيلات ضخمة لكل الحركات المعادية للإسلام شيوعية أو صهيونية أو تبشيرية ، كما أنها تفرض على المسلمين الجهل والفقر والمرض .

وهناك محن أخرى كثيرة تحيط بالمسلمين الأفارقة . . لكننا لسنا بسبيل الحصر . . وحسبنا هذا من صور التحدى للإسلام فى إفريقيا المجاهدة .

بيد أن هناك (منحاً) كثيرة ، ونوافذ فسيحة للأمل فى إسلامية إفريقية .

فإن الاستعمار والتبشير بأسلوبهما الهمجى قد ساعدا المد الإسلامى من حيث لا يشعرون ، كما أن الشعوب الإفريقية قد بدأت تعرف حقيقة الماركسية والصهيونية وأسلوب الحياة فى ظلالها ، وحقيقة أطماعهما ، وقد ساعد على ذلك سقوط أسطورة إسرائيل التى لا تقهر فى حرب رمضان ١٣٩٣ هـ .

إن كينيا قد بدأت سياستها تميل نحو الاعتدال ، فيما يتعلق بالحقوق الإسلامية . . وهذا مكسب ممتاز .

وقد أصبح المجال لنشر الإسلام فى أوغندا فى أحسن صوره الممكنة ، وحبذا لو استغلته الدول العربية المهتمة بالإسلام .

والسنغال قد بدأت تأخذ موقفا معتدلا أيضا من القضايا الإسلامية .

وقد عقد فى عاصمتها داكار – بتسهيلات كبيرة من حكومة السنغال – مؤتمر رابطة العالم الإسلامى الإفريقى الثانى (محرم ١٣٩٧ هـ) الذى انبثق عنه تكوين مجلس التنسيق الإسلامى الإفريقى .

وقد تكرمت حكومة السنغال فمنحت أعضاء رابطة العالم الإسلامى كل الامتيازات والحصانات الدبلوماسية .

وجمهورية إفريقيا الوسطى قد أعلن رئيسها « بوكاسا » أنه ، وفريق من وزرائه ، وستون من كبار الشخصيات–إسلامهم ، ففتح الباب للإسلام فى هذه الجمهورية الفتية .

ومثل إفريقية الوسطى : الجابون التى أسلم رئيسها وأدى فريضة الحج .

ويجب ألا نغفل من ملامح الصورة أن بعض الدول الإفريقية التى حصلت على استقلالها قد أفادت الإسلام ولغة القرآن . وأكبر مثل على ذلك هو الجزائر المسلمة العربية . . جزائر عبد الحميد بن باديس التى نتمنى أن تلعب دوراً قيادياً فى الدعوة إلى الإسلام وفى نشر اللغة العربية فى إفريقيا .

كما أن من الواجب – إحقاقاً للحق – أن نذكر بالخير الجهود التى قامت بها حكومة الجمهورية العربية الليبية فى مساندة مسلمى إفريقيا والمدافعة عن قضاياهم .

فهذه النواحى – وغيرها – تشكل الجزء الكبير المشرق ، الممهد لجعل إفريقيا قارة إسلامية عربية بإذن الله .

مستقبل الإسلام في إفريقيا :

من بين عوامل الإيجاب والسلب المتضاربة . . ومن خلال ملامح الصورة بشطريها الأبيض والداكن . . ووسط تراث حضارى أصيل أعطى إفريقيا لونها الإسلامى على امتداد القرون التى سبقت مرحلة الاستعمار الأوربى . .

من بين كل هذا – وعبوراً من تراث الماضى إلى آلام الحاضر وآفاق المستقبل – نستطيع القول بموضوعية محايدة :

إن مستقبل القارة الإفريقية هو مستقبل إسلامى يتكئ على العربية لغة وفكراً . . ويستمد من الإسلام عقيدة وشريعة وحضارة منطلقاته ، ومناهج نضاله ، ومعالم مستقبله الحضارى المتميز الأصيل .

ولعل من حسن حظنا نحن الذين سنعبر – إن شاء الله – عتبات القرن الخامس عشر للهجرة . . وربما عتبات القرن الحادى والعشرين للميلاد . .

ولعله من حسن حظنا أننا ذلك الجيل الذى سيودع عصر الديكتاتورية الفردية المستبدة الطاغية فى عصر الثورة التكنولوجية . .

لقد آن للتاريخ أن يدور دورة أخرى يكون للشعوب فيها الدور الحقيقى البطولى ، وتنتهى مرحلة الطغاة الذين تعودوا أن يقودوا مئات الملايين بقرار أو بشعار . .

إن مرحلة الغوغائية واستعباد الطغاة للشعوب سوف تنتهى . .

هكذا يقول معلمنا التاريخ . وقد بدأ جليدها يذوب فى جناحى المعسكر الإلحادى إثر سقوط بعض الطغاة . .

وعندما يقف التاريخ على باب منعطفه – فإن شعوب إفريقيا – وليس عملاء الاستعمار التبشيرى ، وليس عملاء الشيوعية ، وليس عملاء اليهودية .

إن شعوب إفريقيا وحدها وليس كل هؤلاء هم الذين سيقررون مصير هذه القارة المجاهدة العذراء . .

وبالتأكيد فإن الفطرة الإفريقية المنبثقة من أعماق التراب والتاريخ لن ترضى بغير الإسلام بديلا . . فماضى الإسلام فى إفريقيا هو حضارتها التى تزهو بها . . وما أسدى الإسلام لها غير الخير . . وما كان دعاته غير مجاهدين يتوجهون بعملهم لوجه الله . ولم يكونوا يوماً ما مستعمرين مستغلين . وأما حاضر الإسلام فى إفريقيا . . فهو كحاضر الإسلام فى كل بلدان الإسلام ، حيث يتعرض هذا الدين – كما ذكرنا – لهجمة استعمارية شرسة ، نظراً لأنه الدين المرشح لقيادة حضارة المستقبل . . وأما المستقبل ، فلا يمكن أن يكون أوربياً أو نصرانياً . . فتاريخ إفريقيا مع أوربا أو النصرانية لا يسمح بإقامة روابط حقيقية .

على أننا نحن العرب الافريقيين المسلمين . . ونحن المسلمين فى كل مكان ، يجب أن نساعد التاريخ على السير بإفريقيا إلى شاطئ المستقبل الإسلامى . فالتاريخ البشرى لا يتحرك آلياً أو عفوياً ، وهو لا يسير باطراد فى اتجاه الأصلح ، إذ يساعده الصالحون فى الأرض . .

وإنى أقدم للقيام بهذا الواجب المقترحات الآتية :

١ – توجيه إذاعة لأفريقيا فى كل بلد عربى مسلم ، تتكلم اللغة الشائعة مع الاقتراب ما أمكن من العربية ، ومع ضرورة إيصالها واضحة لأعماق إفريقيا .

٢ – إقامة سفارات وعلاقات ثقافية واقتصادية طيبة مع البلدان الافريقية كلها ، ولو كان ذلك على حساب بعض التجاوزات عن الآراء السياسية المرحلية .

٣ – تبليغ صوت المسلمين الأفارقة إلى العالم ، وتبنى قضاياهم وحقوقهم الإنسانية فى تعلم دينهم ولغتهم العربية ، والوقوف ضد الدول التى تحرمهم من هذه الحقوق (فمثلا . . حكومة أثيوبيا تحرمهم من إقامة المدارس الإسلامية ومن تعلم الدين الإسلامى . . وتعتبر ذلك عملا غير مشروع) .

٤ – رصد ميزانية خاصة للمعونة الاقتصادية لمسلمى إفريقيا ، وذلك

لمساعدتهم على إقامة مساجد ومدارس ومستشفيات ودور لرعاية المعوزين والعاجزين واليتامى والأرامل حتى يتمكنوا من الاستغناء عن مساعدات التبشير المسيحى ، ومن القضاء على الموبقات الأخلاقية التى يدفع إليها الفقر ، (فالزنا فى أرتيريا — مثلا علنى . . حيث يجلس النسوة فى مصوع أمام البيوت ، ويمضين بالليل أمامها فى انتظار الساقطين)(١) .

٥ — مناشدة الحكومات الإسلامية فى البلدان العربية الافريقية بمنع الزنا والخمور — منعاً رسمياً — وعدم التصريح بقانونية هاتين الجريمتين . . حتى تكون هذه الدول مثلا حيا لافريقيا المسلمة غير العربية . . فالحقيقة أن الفساد الأخلاقى من الوسائل التى يعتمد عليها التبشير والصهيونية والشيوعية فى استعباد الشعوب وقهرها .

٦ — استغلال الظروف المتاحة — ولو مرحليا — أحسن استغلال لتوطيد أركان الإسلام والعربية فى بعض البلدان الافريقية التى تقيم علاقات قوية هذه الأيام مع العالم العربى . . كأوغندا والجابون والسنغال وتشاد ونيجيريا وجمهورية إفريقيا الوسطى . . . وغيرها .

٧ — العمل على إذابة الفوارق بين المذاهب الإسلامية المعترف بها ، وجلاء وحدة الدين الإسلامى فى أصوله . . فنى بعض البلدان الافريقية تنتشر — للأسف الشديد — موجة التعصب المذهبى لدرجة أن بعض الطوائف تخصص مساجد لها ، فتكتب على المسجد مثلا : (مسجد الشافعية ، أو مسجد الحنفية) وهكذا . . .

٨ — نشر الإسلام الصحيح والثقافة الإسلامية الأصيلة — بالكتب والأساتذة وبالنشرات والدوريات بلغات إفريقيا — فالمسلمون الأفارقة فى أغلبهم جهلة لا يعرفون أبجديات الإسلام ، بل بعضهم يخلط بين الإسلام والمسيحية ، حتى فى الاسم ، فيتسمون : « هنرى محمد ، وجيمس على » ،

---

(١) انظر محمد العبودى : فى أفريقيا الخضراء صفحة ٨٢ وانظر ٨٧و١٧٢ .

بل إن بعض الأطفال المسلمين والشيوخ لا يعرفون معنى الإسلام ، ولا يعرفون أنهم مسلمون . وبعض المدارس الافريقية الإسلامية تخلو من مدرس واحد للإسلام والعربية ، كما أن بعضها أغلق بعد بنائه لعدم وجود المدرسين المتخصصين فى الإسلام والعربية .

٩ ــ دراسة اللغات الافريقية واللغتين الانجليزية والفرنسية فى المعاهد والجامعات الإسلامية ، وبخاصة معاهد إعداد الدعاة .

١٠ ــ مساواة الماركسية بالصهيونية والتبشير ، وإعلان الحرب على كل هذه المبادىء الهدامة التى تحارب الإسلام فى إفريقيا « فالكفر ملة واحدة »

وقد فعلت الماركسية بالإسلام فى أثيوبيا والصومال وتنزانيا وغيرها ما لم يجرؤ الاستعمار على فعله ، وقد أوقف الشيوعيون المد الإسلامى فى كل بلد إفريقى سيطروا عليه .

١١ ــ ولا نستطيع أن نخفى أن حركة القومية العربية كفكرة عنصرية متخلية عن الإسلام ، قد أساءت كثيراً إلى الصورة الإسلامية فى إفريقيا .

وبالتالى فالولاء للإسلام وللمستقبل الإسلامى لإفريقيا يقتضى التخلى عن هذه النعرة الجاهلية .

١٢ ــ وأخيراً . . . فإن أوضاع العالم العربى والإسلامى ، والخلافات السياسية والفكرية القائمة بين بعض حكوماته ، وتخلى كثير من القيادات عن الإسلام منهجا ورسالة إلى البشرية ، والاعتماد على الفكر المادى أو العلمانى أو القومى . . فضلا عن انحطاط المستوى الفكرى والخلقى والاقتصادى والسياسى داخل المجتمعات الإسلامية . . .

كل هذا لعب دوراً فى زحف الأفكار المضادة للإسلام على إفريقيا ، وفى بطء التقدم الإسلامى . . إذ أن فاقد الشىء لا يستطيع أن يعطيه . . وتقدم النموذج العملى لا يقل عن الاستيعاب النظرى .

وإن واجبنا نحن المخلصين لقضية الإسلام أن نناشد القيادات العربية والإسلامية فى أن تتجه إلى الإسلام داخليا وخارجيا . فنى ذلك ازدهارنا داخليا ، وتقديمنا النموذج الصالح الملائم لمبادىء ديننا خارجياً . . وصدق القرآن :

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)(١) .

هذا طريقنـــا . . .

ورسالتنـــا . . .

ومستقبلنـــا . . .

(هو الذى أرسل رسوله بالهـدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون)(٢) .

---

(١) آل عمران ١١٠ .

(٢) الصف ٩ .

الملحمة الثانية

العالم الإسلامى... وقضية الحرية

الحرية . . كانت بداية كل نهضة . .

وهى البداية الصحيحة للعـــالم الإسلامى

هل رأينا زهرة تفتحت أكمامها ، وأعطت الحياة شذى طيبا ولونا بهيجا ، بينما هى خارج نطاق الطبيعة . . حبيسة . . لا تتنفس فى هواء صحيح ؟

تلك هى الحقيقة الفطرية التى تمارى كثير من النظم السياسية فى الاعتراف بهـا . .

لـكن لمـــاذا ؟ . . .

لمـاذا يصر بعض الحكام ، وتصر بعض الأنظمة ، على تحويل الوطن إلى سجن كبير لا يتفيأ الناس فيه ظلال الحياة ، ولا يتنفسون فى الهواء الصحيح . . لمـاذا ؟

الاحتمال الظاهر أن تكوين هؤلاء الحكام أو هذه النظم هو تكوين إرهابى . وأن هذه النظم وهؤلاء الحكام قاصرو النظر ، فاسدو المزاج ، لا يملـكون الوعى التاريخى ، ولا الرؤية الحقيقية . . أى إنهم – بإيجاز – جهلاء سذج . . وفقط ! !

والاحتمال الثانى . . الأكثر بعداً عن طيبة القلب ، وسلامة النية ، وسذاجة التفكير . . هو أن هؤلاء الحكام . . ظلمة . . إرهابيون . . . وهم يعلمون أن الحرية – كقانون يعطى كل مواطن حق القول ، وحق النقد – سوف تحد من ظلمهم ، وربما قضت عليهم وسوف تكبح جماح طغيانهم وإرهابهم ، وسوف تمنع أيديهم من سرقة قوت الأمة ، والمغامرة بحاضرها ومستقبلها فى نزوات مضمونة الخسارة فى أغلب الأحايين . . .

أى إنهم – بإيجاز – يخافون من الحرية على أنفسهم فقط . . باعتبار أنهم ظالمة ! !

والاحتمال الثالث . . الأكثر وعياً بحركة التاريخ هو أن هؤلاء الحكام هدامون يقتلون فى أممهم إرادة الحياة ليجعلوها تتعود الذل وتستعذب الإرهاب ، وتتمرن على القهر والانحناء .

أى إنهم فى الحقيقة يمهدون الأرض والنفوس لأى استعباد خارجى يطرأ . . وقديما وعى الشاعر العربى البسيط هذه الحقيقة حين قال بيته المشهور :

لا أذود الطـــير عن شـــجر قـــد بلوت المـــر من ثمـره

هل يدافع السجناء عن سجونهم أو سجانيهم ؟

هل يدافع العبد عن سيده الذى أرهقه بسياطه ؟

هل يدافع القتيل عن قاتله ؟

إن غوستاف لوبون يضرب لنا مثلا رائداً فى هذا الباب حين يقول : « وكلما كانت جيوش الثورة الفرنسية ، وهى ماضية فى غزوها تصطدم بأمم أذلهـا الطغاة المستبدون ، ولم يكن لهـا خيال تذب عنه كان النصر حليفها أما حين تصطدم بأقوام معهم حرية ولهم خيال . . فقد كان يتعذر عليهـا الفوز والانتصـــار » .

. . . نعم . . . هكذا أثبت التاريخ أن السجين المقهور لا يدافع عن سجنه . وأن الفوز والانتصار حليفان للشعور بالذات . . ولعل هذا – وكما أثبت التاريخ كذلك – هو سر تفوق الشعوب الحرة ، وانتصارها ، وتقدمها .

ولعله سر تمسح الناس – كل الناس – فى الحرية والديموقراطية ، حتى تلك الأنظمة المعادية – كل العداء – للحرية . . نعم حتى هذه الأنظمة تسمى نفسها أنظمة ديموقراطية وترفع شعار « الحرية » ! !

وليس من التكلف القول بأن أهمية الحرية فى خلق الطاقات المبدعة . وتوجيهها فى طريق بناء الأمم والدور الحاسم الذى تلعبه ، هو الذى يجعل

الاستعمار يحرص على أن يخلفه حكام إرهابيون وأنظمة إرهابية يخترع لها — هو — شعارات معادية له . . لكى تقتل باسمها الحرية . . ولكى تقوم بتحقيق ما عجز الاستعمار عن فعله — باعتباره قوة خارجية تواجه بتحد صريح — من وأد الشعوب وقتل طاقاتها ، ومن ضرب كل العناصر الإيجابية فيها !

أى إن هؤلاء الحكام — بإيجاز شديد يقتلون القوى الإيجابية التى عجز الاستعمار عن قتلها !!

• • •

والاحتمالات كلها صحيحة ، وهى كلها قد تجتمع ، وقد تفترق ، لكن اجتماعها أو افتراقها لا يبرران الركون للظلم ، لأن النتيجة واحدة ، ولأن الضحايا فى نهاية الأمر هى الشعوب .

الشعوب المسكينة التى حرمت حقها فى الحياة . . حين حرمت حريتها .

ولئن كان الوطن هو المكان الذى يتاح للإنسان فيه الاستقرار والسلام والعيش ، فإذا لم يشعر الناس بشىء من ذلك بفاء على سعيهم الحثيث وكدهم الدائب فإن إحساسهم بالوطن يتضاءل ويذوى بينما ينمو شعور آخر بأنهم غرباء فى هذه الأرض وضيوف عليها بل وشعور آخر أكثر سوءاً إذ يجدون جهدهم يضيع وعناءهم يتبدد فى وطن لا يكافئهم ولا يتراحب لحقوقهم وغاياتهم فتنفصم كل عرى الولاء والحب التى كانت فى نفس الجماعة لأرضها ووطنها وترحب بكل طارق ومغير يقرع أبواب بلادها !!

• • •

• الحرية هى الحياة ، لأن الحياة بلا حرية هى دولاب آلى لا إحساس له !!

• والحرية هى الإنسانية ، لأن الإنسانية بلا حرية هى حيوانية بهيمية !!

• والحرية هى الوطنية . . لأن الوطن بلا حرية سجن كئيب يهرب منه أبناؤه !!

• والحرية هى التقدم والإبداع . . لأن العبيد لا يقدرون على صنع المستقبل ولأنهم لا مستقبل لهم !!

وتلك هى أهمية الحرية ، ومن هنا تنبع خطورتها !!

الحـــرية كمفهوم سياسى :

من البديهى أن تطور الأحداث المتعلقة بمضمون معين هى التى تحدد الهوية الحقيقية لهذا المضمون ، ذلك لأننا لا نستطيع فصل الأشياء عن الكلمات كما أننا لا نستطيع بتر التصورات التاريخية عن المصطلح التاريخى .

إن اللغة ليست كما يتصور البعض مجرد تجريد ذهنى . إنها تعبير مرتبط بالشىء لا ينفصل عنه ، وحين يفصل الشىء عن اللغة . . تصبح اللغة مجرد تمغمات صوتية ، أو إيقاعات مجنونة يستوى فيها حنجرة الإنسان والحيوان وفرقعة الجمادات .

ومن الحتم عند تتبع مصطلح التعرف على الدلالات المختلفة التى استعمل فيها . وأدوار الاستعمال التاريخية التى مر بها . . .

ومصطلح كمصطلح الحرية . . لابد فيه من تحقق كل هذه الأبعاد . لكى يوضع فى مكانه السليم . . ولكى تزحزح الغيوم التى من الممكن أن تكون قد تراكمت على جانبيه عبر مسيرته فى التاريخ .

يرى البعض أن الحرية هى حرية المعارضة . . حرية أن أرفض أو أقبل . .

ويرى البعض أن الحرية هى « غياب المعارضة » بالنسبة للشخص ، أى أننا نشعر بحريتنا حين نحس بأن أحداً لا يراقب سلوكنا ، ولا يحد من قدراتنا التصرفية . . . ومن هنا أطلقوا على النظم الإرهابية بأنها النظم المطلقة . . أى الحرة التصرف فى الجماهير وفق هواها . .

ولاتعارض بين الدلالتين .. لأنهما فى الحقيقة يكمل بعضهما البعض .. فحرية هذا فى أن يقول . . هى نفسها حرية ذاك فى أن يعترض . . أى أن يقول رأياً آخر . .

المهم ألا يستعمل أحدهما وسائل خارجية بعيدة عن « القول » لكى يمنع الآخر من القول كما يشاء ! !

وفى هذه الحال تبدو قضية الشعور لا قيمة لها . . فشعورك باللاحرية لأن أحداً من حقه أن يعترض على قولك هو أنانية ذاتية تريد الاعتداء على حق الغير فى أن يقول . . مثلما أخذت أنت حق القول ابتداء .

من حق الجهاز الحاكم أن يقول . . أن يدافع عن آرائه ومشاريعه . . لكن ما دام الأمر سيتعلق بى أنا المواطن العادى . . فمن حقى أن أعترض على قوله . . .

نعم : من حقه القول . . ومن حقى القول . . لكن أن يفعل ابتداء ، أو أن يمنعنى من حق القول ، فهذه هى الاستغلالية ، والعبودية ، وإساءة التصرف فى حريتى !!

إن الحرية لا تعنى فقدان الضوابط بل تعنى انسجام الضوابط وتوازنها ، بحيث لا تكون الضوابط ملزمة للمحكوم فقط ، بل ملزمة للحاكم والمحكوم معاً . . !! والقيود التى تمنع الإنسان من الإساءة إلى نفسه أو إلى الغير هى قيود مرغوب فيها عموماً ، وقيود القانون العادل هى من هذا النوع ، وحيث يسود « لا قانون » تسود بالتالى « لا حرية » !!

وفى رأى بعض المفكرين السياسيين أن الحرية مضمون واسع ، ولابد لنا حين نريد تحديدها سياسيا أن نفرق بين أنواع الحريات السياسية ، كحرية الانتخاب ، والترشيح ، والمعارضة ، والتصويت الحر ، ورفض الدستور أو قبوله ، وحرية المعتقد ، والفكر . . . وما إلى ذلك ، فضلا عن حرية الانتماء الحزبى ، الذى يمثل أبرز صورة من صور الحريات السياسية .

وربط آخرون بين الحرية السياسية والاقتصادية ، فيرون أن جناحى الحرية هما حرية الرغيف وحرية الرأى ، ويرون أن غياب رغيف الخبز يعنى غياب الرأى الحر .

ويستجدى هؤلاء التاريخ ، فيذكرون أنه فى ظل المجتمعات الطبقية كان من الصعب على طبقة البروليتاريا أن يكون لها رأى ، لأنها محكومة

بقوانين العمل ، وبمضاعفات الثورة الصناعية ، وبالتسلط البورجوازى الذى يمنعها من أن تبدى رأياً معارضا لمصالح البورجوازية المسيطرة ! !

ومع صحة الدور الذى يمكن أن يلعبه الاقتصاد فى الحياة ، فالواقع أن الحرية كقيمة وجودية وسياسية ليست مرتبطة ارتباطا عضويا بالاقتصاد إلى هذا الحد . .

فعلى مدار التاريخ وجدت الطبقات ، ووجد السادة والعبيد ، ووجد الأغنياء والفقراء . . .

لكن إذلال بعض الطبقات لبعض الطبقات الأخرى — لم يكن — أبداً ودوما — وليد احتياج الطبقات الذليلة لرغيف الخبز — أو العوز الاقتصادى — للطبقات الأعلى . . بل إن هذا الإذلال يرجع إلى عوامل ، ربما كان بعضها عرقيا جنسيا ، أو دينيا مذهبيا ، أو تسلطيا إرهابيا ، أو استعماريا خارجيا . . فما معنى الربط الأبدى بين الاقتصاد والسياسة ! !

والأمر نفسه يقال فى ارتباط السادة بالعبيد ، إنه لم يكن وليد تحكم السادة فى الاقتصاد وحسب ، بل كان وليد عوامل تاريخية كثيرة ، منها التركيب الاجتماعى نفسه ، ومنها التطور التاريخى ، ومنها التخلف الفكرى ، ومنها الجاهلية الاعتقادية ! !

. . وبالتأكيد تعتبر الحرية الاجتماعية المقننة ، والحرية الاقتصادية المقننة ، والحرية الفكرية المقننة . . عوامل هامة لاستكمال الحرية السياسية . لأن الحرية السياسية لا تقوم فى فراغ .

ويبقى بعد ذلك أن الحرية السياسية هى أن يتاح للمواطن الاشتراك فى حكم نفسه ، بقدر ما تسمح له مجموعة ظروفه فى المجتمع ، والدولة الحرة سياسيا هى تلك التى تصبح دولة الشعب .

خـــارج الحـــرية :

من الغريب فى التاريخ أن الذين عرفوا قيمة الحرية ، وتعاملوا معها كقانون من قوانين البقاء ، لم يتعبوا أنفسهم فى التهويل بها . . والاتجار على حسابها . . .

إن اليهودية الصحيحة التى كانت على عهد موسى ، والمسيحية الصحيحة التى كانت على عهد عيسى ، والإسلام منذ نزل على محمد — عليهم الصلاة والسلام جميعاً — وإلى اليوم . . إن هذه الرسالات كلها قد خلصت البشرية من كثير من أثقال العبودية وأوزار الاستبداد .

لكن — من الغريب فى التاريخ — أن هذه الرسالات — الرسالات السماوية كلها — لم ترفع شعار الحرية ، ولم تتاجر به لتستغل الجماهير ، وتستغل غوغائية بعضها . . . لقد كانت تعلن العبودية لله الواحد ، والمساواة والحرية بين كل البشر . . كانت هذه هى خلاصة عملها . . استسلام لله ، وثورة على كل الطواغيت والقيم والتصورات الاستعبادية البشرية . . .

ومع ذلك ، فلم تستغل الأديان عموما — كما ذكرنا — شعار الحرية لتتاجر به على الجماهير المضطهدة الكادحة . . إنها كانت تخلق من السادة أنفسهم محررين للعبيد ، وكانت تخلق من العبيد سادة ، وتوقف الجميع أمامها وقفة متساوية فى ظل قانون واحد وإله واحد . . لقد كانت الأديان تغرس جذور الحرية بطريقتها الخاصة الفريدة !!

لكن من غريب التاريخ كذلك أن يكون رافعو شعار الحرية ومستغلوه هم ألد أعداء الحرية .

فأسلوب الثورات والتحولات الانقلابية الانفعالية ، وهو الأسلوب الذى رقص كثيراً على أنغام موسيقى الحرية . . هذا الأسلوب كان من أكبر عوامل قهر الحرية فى التاريخ !!

فباسم الحرية أذلت الثورة الفرنسية الأمة الفرنسية كلها . .

وباسم الحرية الاقتصادية والسياسية أذلت الثورات الشيوعية والاشتراكية أمماً كثيرة فى الأرض والدول التى تسمى نفسها دولا ديموقراطية هى فى أغلب الحالات الدول الاستبدادية « ألمانيا الديمقراطية الشعبية ، اليمن الجنوبية الشعبية ، كوريا الديموقراطية ، الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية الديموقراطية ، الصين الشعبية الديموقراطية .. وهلم جرا . . . »

إن هذه الدول عموماً تحكمها فئات صغيرة من السياسيين المحترفين ، أو المغتصبين العسكريين أو المدعومين بقوى خارجية ، ومع ذلك ، ومع أنه قام من بين حكام هذه النظم أبشع الطغاة فى التاريخ ، فهذه النظم — مدفوعة بعقدة الشعور بالذنب أو عقدة النقص ، إلى أن تلوك كلمة الحرية والديموقراطية ، أكثر من لوكها أية كلمات أخرى !!

إن هذه النظم كلها « خارج الحرية » ، بل إن هذه النظم هى أكبر وصمة عار أصابت « الحرية » وأصابت كرامة الإنسان ، ولوثت مفهوم الحرية حتى كادت كلمة الحرية تفرغ من مضمونها الحقيقى !!!

الحـــرية فى الإســـلام :

لم يرفع الإسلام شعار الحرية ولم يتاجر به . لأن قضيته فى الأرض هى قضية الإنسان فى موكب تاريخه كله ، وليس ينسجم مع طبيعة الإسلام أن يحصر نفسه فى قضية واحدة من قضايا الإنسان قد تعنى أقواماً ولا تعنى آخرين ، وقد تكون ملحة فى زمان ، بينما تكون عادية متوافرة فى زمان آخـــر . . .

وانطلق الإسلام يصفى منابع الرق ، ويضع مسئولية هذه التصفية على كاهل السادة والعبيد معاً . . . إن القضية ليست قضية صراع يودى بأجيال لينتهى بثورة مضادة تضيع نتائجه . . .

إنها قضية الإنسان . ويجب أن يتحمل كل إنسان — فى أى موقع — دوره فيها . . .

إن على « السيد » قبل « العبد » أن يدرك أن قوانين استعباد من نوع الاسترقاق المعروف هي مهزلة إنسانية ، ومن الممكن أن يقع هو ضحيتها في معركة خاسرة أو أمام قطاع طرق . . . إن عليه أن يشمئز شخصيا من قضية أفضلية إنسان على إنسان أو استعباده له .

لابد أن تنبع الثورة من داخل فكره ونفسه ، ولابد أن تكون متصلة بقضية إيمانه . . . ولقد نجح الإسلام في ذلك أروع نجاح في التاريخ ، وتغيرت النفسية التي أسلمت ، فرفعت العبيد إلى مصافها ، بل جعلتهم أسياداً لها « بلال سيدنا » ، « وسلمان من أهل البيت » . . .

ومات معنى العبودية بمعناه القديم قبل بزوغ فجر الإسلام . . ووقف العبد في الصلاة إلى جوار سيده ، بل ربما أصبح إماما وأصبح السيد مأموما !

وبمناسبة وغير مناسبة حث الإسلام ، بل وأوجب ، تحرير الرقاب **« فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام في يوم ذي مسغبة » . . .**

وأعطى العبد حق استرداد حريته بالمكاتبة ، لكي يبقى أمره بين يديه ، ولكي لا يرى أن الرق مفروض عليه . . . أبداً .. أمره بين يديه ، وليس من حق السيد أن يمتنع عن مكاتبته ، وأما الجارية فإذا أنجبت صارت أم ولد . . أي بإيجاز شديد تنال حريتها إن عاجلا أو آجلا ! !

وفي المجتمع . . في مجالات السياسة ، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم ، برزت الحرية بصورة لم تعرفها البشرية من قبل . . .

ذهب الرسول عليه الصلاة والسلام إلى معركة أحد بالرغم من أن هذا لم يكن رأيه . . فلما انهزم المسلمون ، نزلت آية : « وشاورهم في الأمر » حتى لا يظن أن ثمة ترابطا بين الهزيمة والشورى .

وفي بدر شاور الرسول ، وفي الخندق شاور أيضاً . . !! ولم يكن المسلم يحس بأن ثمة ما يمنعه من أن يقول رأيه . . فالرسول لم يكن يعاقب

أحداً على القول أو يمنعه منه .. ولم تكن ثمة مسائل عليا ومسائل سفلى ، بل كل الأمور البشرية من حق البشر ، بل فيما يتعلق بأمور الدنيا هذه يقول الرسول الكريم : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » !!

ويعلن الخليفة فى خطبة الخلافة الأولى « إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى » .

وعندما يتكلم عمر فى قضية المهور تصوب له المرأة رأيه . . فيقول على رءوس الأشهاد : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » . .

وعندما يطلب من رعيته أن يقوموه . . يقول له أحد الجالسين : « والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناك بسيوفنا » فلا يغضب أو يأمر باعتقال الرجل . . .

ويخطب فيأمر الناس بالسمع والطاعة ، فيرد عليه أحدهم : « لا سمع ولا طاعة » لأنه ظن أن عمر أخذ أكثر من حقه فى ثوب . . فيبين له عمر الأمر !!

والتاريخ الإسلامى حافل بالصور العاكسة لظاهرة الحرية كقيمة حياة تنهار قيمة الحياة بدونها !!

ولئن كان ثمة انحراف فى بعض فترات هذا التاريخ ، فإن هذا الانحراف كان خروجا على الإسلام كأى خروج آخر من مظاهر الانحراف الكثيرة ، وهو خروج لا علاقة له بالإسلام ولا بصناع التاريخ الإسلامى الحقيقيين !

الحرية . . بداية النهضة الأوربية الحديثة :

من خلال القيم الإسلامية التى تصنع المناخ الحر بزغ فجر حضارة الإسلام ، وظل المسلمون عشرة قرون . . بل وأكثر ، سادة الدنيا ، وقادة التقدم ، وأساتذة العلوم والآداب .

وعندما التقى الشرق بالغرب سواء فى صقلية أو جزر البحر الأبيض

أو الأندلس أو الحروب الصليبية ، أحس الأوربيون بأن روح الحرية من أبرز عناصر تفوق هؤلاء المسلمين ! !

ومع بداية عصر النهضة فى القرن الخامس عشر كانت ظاهرة « النقد والحرية » سواء فى مجالات الارهاب العقيدى الكنسى ، أو مجالات الفكر بعامة أو مجالات السياسة أو غير ذلك . . كانت هذه الظاهرة من أبرز العناصر المكونة للمواد الخاصة التى صنعت عصر الصاروخ والمركبة الفضـــائية ! !

ولئن كان مارتن لوثر (١٤٨٣ – ١٥٤٦ م) وكالفن (١٥٠٩ م) ، وجون فوكس (١٥٠٥ – ١٥٩٢ م) قد قادوا قضية التحرر من الارهاب والجمود الكنسى ، فإن قيام « الثورة » البرلمانية فى انجلترا إبان القرن السابع عشر وانتصارها على الحكم المطلق كان أبرز ظواهر التحرر من الإرهاب السياسى ، وكانت لائحة الحقوق التى صدرت فى انجلترا سنة ١٦٨٩ من الوثائق النادرة المحددة لخط جديد فى المسيرة الأوربية التى كانت ساكنة أكثر من عشرة قرون .

وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر برز المفكرون الأحرار المتمادون المغالون فى الحرية – كرد فعل لعصور القهر الكنسى ، وكان من زعماء هؤلاء : طوماس مور ، وجون لوك ، ومونتسكيو ، وفولتير ، وجان جاك روسو ، وديدرو ، وغيرهم .

ومما لا شك فيه أن الحرية التى تمتعت بها المجتمعات الأوربية كانت من أبرز الأسباب فى تقدم هذه القارة ، وفى استعمارها للعالم كله إبان فترة من الفترات ، وفى تقدمها العلمى الذى لا يستطيع أحد إنكاره أو المماراة فى آثاره ! !

• • •

لقد عملت أوربا بكل الرئات المتنفسة ، وبكل العقول المفكرة ، وبكل الآراء المتصارعة ، فوصلت من خلال كل ذلك إلى التقدم والسيطرة ! !

أما الذين يعملون برئة واحدة وعقل واحد ورأى واحد . . فسرعان ما يموتون ! !

طريق العـــالم الإسلامى :

• إن الفرد — مهما تبلغ طاقاته — لا يمكن أن يقف أمام نظم ومجتمعات تفكر كلها وتعمل كلها . . مثل مجتمعات أوربا وأمريكا . . .

• ثم من هو الشخص الذى لا يخطىء ؟ وما دامت الخطيئة ملازمة للفرد ، فلماذا نترك مصير الشعوب معلقاً على خطأ فرد أو صوابه ؟

• لقد وصف « بسمارك » بأنه أنشأ وطناً كبيراً ، ولكنه خلف مواطنين ضئالا . . سرعان ما استسلموا لارهابيين آخرين .

• إن الوطن الكبير هو الذى يتكون من مواطنين كبار ، والمواطن الكبير يبدأ وجوده من قدرته على التعبير ، ومن توفير المناخ الحر له .

• لقد قاست أوربا مئات السنين من أجل الوصول إلى التنظيم الديموقراطى الذى تنعم بخيراته الآن .

ونحن فى غنى عن كل هذا الشوط المرير إذا رجعنا إلى قيمنا . . إلى إسلامنا .

أجل نحن فى غنى عن المعارك الدموية والتضحية بأجيال والتعرض للفناء . . . إذا استلهمنا الإسلام فى تقنين العلاقة بين الحاكم والمحكوم . . وفى إطلاق الطاقة الإنسانية من قيود المعتقلات والمحاكمات الصورية وتأميم الصحافة ومراقبة النشر والضغط على الهيئات العلمية والتلويح بالحرمان والإذلال . .

• كل ذلك فى حدود العقيدة الإسلامية السمحة .

• لكي تكون الحرية . . فى مكانها .

• ولكى ينطلق هذا العالم المقيد بالنظم الإرهابية . . المكبل بالأفكار المستوردة .

• ولكى تخضر أرض حضـــارتنا من جديد .

الملحمة الثالثة

(١)
المترددون فى تطبيق الشريعــة

ونحن على مشارف قرن جديد هو القرن الخامس عشر للهجرة . . بدأت تتنادى وتلتقى – من أعماق الخلل الحضارى والتردى التاريخى – أصوات هنا وهناك ، أضناها المسير المنحرف الممزق منذ عشرات العقود ، فى التيه الذى فرضه غزو تدرع بكل أساليب القهر الفكرى والهيمنة النفسية والتفوق العلمى . .

هذه الأصوات . . لم تخرج من الأعماق . . عبثا ، وفى الوقت نفسه لم تخرج وفق تخطيط وتنظيم . فثمة صيحة فى أندونيسيا ، قد تساوقها صيحة فى مصر ، وقد تأتى بعدهما ثالثة فى السودان أو باكستان ورابعة فى الكويت . . . وهلم جرا .

إنها صيحات خرجت . . كما تخرج صرخة المريض . . يطلب الدواء ويعبر عن المرض . . ويعلن – بكل ما أوتى من صدق – أن الأدوية التى تعاطاها لم تفده حتى اللحظة ، وأنه ما زال فى حاجة إلى الدواء . . الصحيح !

إن عاقلا ما . . لا يطلب من المريض أن تكون تعبيراته عن مرضه – برغم صدقها التام – تعبيرات منظمة رتيبة الإيقاع ، متناغمة اللحن . . ولا أن تكون هذه الإيقاعات المعبرة قد سبقها فكر منظم ووعى موضوعى وتخطيط ذكى ، وإنما العقل كل العقل أن يعطى هذا المريض الدواء الصحيح ، ليبدأ فى السير نحو الطريق الصحيح للشفاء . . وبعد ذلك تبدأ المباحثات العاقلة حول « أمثل الطرق » لاستئصال المرض . . والحفاظ الدائم على الصحة . . وما إلى ذلك من قضايا حياتية ومستقبلية .

محاذير . . الطريق !! :

وأغلب الذين يدعون لتطبيق الشريعة الإسلامية — على امتداد العالم الإسلامى — يعرفون جيداً — كما يعرف هؤلاء الذين نناقشهم اليوم — كل محاذير الطريق :

* يعرفون أن بعض الحكام قد يستغلون تطبيق الشريعة الإسلامية . . للتخلص من بعض خصومهم . . أو للتنفير — بصورة مكرسة ، من تطبيق الشريعة ، مستقبلا ، أو لاجتذاب الجماهير فى مرحلة احتياجهم إليهم . . أو لغير ذلك .

ويعرفون — تماماً — أن تطبيق الشريعة . . بدون أرضية عقائدية ، بل وبدون مجتمع إسلامى . . قد يكون مغامرة تسىء إلى المستقبل الإسلامى كله .

* ويعرفون أن أغلب الحكام فى عالمنا الإسلامى تتعارض مصالحهم مع تطبيق الشريعة ، سواء فى مجال « تركيبة » أسلوبهم فى الحكم ، أو « تركيبة » انتماءاتهم الفكرية ، أو « تركيبة » مشكلات بلادهم التى ربطوها بقوى خارجية . . أول شروطها وضغوطها أن تكتسح المفاهيم الإسلامية من الطريق .

* ويعرفون — أيضا — أن ثمة مذاهب وأفكاراً واتجاهات ومستحدثات وأقليات وأوضاعا فرضت نفسها . . وأصبحت ضغوطا لابد أن ينظر إليها بعين الاعتبار عند التنادى بتطبيق الشريعة الإسلامية !!

* ويعرفون — تمام المعرفة — أن « الإيمان وحده لا يعصم المجتمع » ، وأنه « ليس بالشريعة وحدها يقوم المجتمع الإسلامى » !!!

* * *

وعندما كنت أتابع مقالات أخينا الدكتور محمد فتحى عثمان ومقالات صديقنا

فهمى هويدى ، فى مجلة العربى . . أو فى المسلم المعاصر — حول « التخوفات » و « المحاذير » التى يجب أن تسبق تطبيق الشريعة . . أو عند التنادى — مجرد التنادى — بتطبيق الشريعة ، كنت أعجب لأمر الصديقين الكريمين . . وأقول لنفسى ، بعد أن أنتهى من قراءة ما يكتبان : إنها كلمات عاقلة تقال فى غير موضعها ، أو هى — على الأقل — كلمات حكيمة تقال لإنسان يشرف على الغرق ! ! . . إنها « إغراق مستتر » لذلك المستنجد الذى يصرخ بملء فيه قائلا :

« أخرجونى إلى الشاطئ أولا » . . ثم قولوا — أيها الحكماء — بعد ذلك ما تشاءون ! !

وأعجب أول ما أعجب للدكتور فتحى عثمان — وهو مؤرخ مسلم — كيف خانته حاسته التاريخية ؟ وكيف سمح لنفسه أن يتناسى حقيقة بديهية ، هى أن الشريعة الإسلامية التى نناقش قضية تطبيقها اليوم قد سبقت لعدة قرون — على الأقل — قبل ذلك ، عبر بيئات ومستويات حضارية مختلفة الكم والكيف .. ولم يقف أحد المسئولين الإسلاميين أو المفكرين الملتزمين ليعلن — خلال تلك العصور — أن من الضرورى إرجاء تطبيق الشريعة الإسلامية . . حتى نزيل « التخوفات » ونناقش « المحاذير » ثم « نفكر ونناقش » بدون « تبسيط » قضية تطبيق الشريعة الإسلامية .

فهذه الشريعة — كما يعلم الدكتور ومثله الأستاذ هويدى — قد خرجت من قلب الجزيرة بكل خصائصها البدوية . . لتدك بلاد فارس والروم ، ولتنفتح عليهما . . ولتقول « الرأى الإسلامى » فى كل ما لديهما — وهما يمثلان حضارة العصر — وفقاً لأصول التشريع الإسلامى بترتيبها المعروف « قرآن ثم سنة ثم إجماع ثم قياس » . . . الخ .

* * *

وقد خرج مذهب « مالك » إمام « أهل المدينة » والحديث . . النابع

من أعمق أعماق الجزيرة . . خرج فسيطر على الشاطىء الآخر الأوربى . . حين ساد الأندلس طيلة أيام الوجود الإسلامى بها وحين ساد الجناح المغربى للعالم الإسلامى . . ليبيا وتونس والجزائر ومراكش . . وبقاعا أخرى فى العالم الإسلامى . .

ومن قلب الجزيرة العربية أيضاً خرج الإمام الشافعى . . فلما رحل إلى مصر استحدث آراء جديدة مازالت كتب الفقه ترددها ، فاصلة بين هاتين المرحلتين فى عملية المواجهة الحضارية التى تعرض لها الشافعى . . فهى حريصة على أن تقول : « قال الشافعى فى القديم » وأن تقول : « وقال الشافعى فى الجديد » !

ومئات من الشواهد تدل على أن هذه الشريعة قادرة على مواجهة عصرنا . . بكل مستحدثاته . .

المترددون فى تطبيق الشريعة !! :

ونتناول الآن ما ساقه « المترددون » فى تطبيق الشريعة . . نقطة نقطة بشىء من الإيجاز الذى يسمح به هذا المقال .

ونبدأ بالنقطة الأولى التى يثيرونها — وهى فى رأينا كلمة حق يراد بها باطل — أو على الأقل تستغل استغلالا باطلا — (ونحن نرجح أن الاستاذين فتحى عثمان وفهمى هويدى لا يقصدان استغلالها هذا الاستغلال وإنما يستغلها الخصوم) أقول : إن النقطة الأولى التى تثار دائماً فى وجه كل المطالبين بتطبيق الشريعة الإسلامية هى أن « العقيدة » لابد أن تسبق « الشريعة » .

وفى هذا المعنى يقول الأستاذ « فهمى هويدى » فى (العربى عدد ٢٢٧) :

« وهذا هو المنهج الذى اتبعه النبى عليه الصلاة والسلام ، عندما أراد أن يبنى المجتمع الإسلامى الأول . . بالعقيدة بدأ ، وكان هذا منهجا طبيعياً وضروريا . فما لم يكن الأساس متينا فكل بناء فوقه معرض للسقوط فى أية لحظة ، لقد قضى النبى ١٣ عاماً فى مكة يزرع بذور الإيمان فى قلوب المسلمين . . العقيدة هى الأصل والأساس ، والشريعة هى الفرع ، لماذا

نوجه كل همنا إلى الفرع بل إلى جزئية محدودة من هذا الفرع ولا نعطى الأصل حقه ووزنه ؟ » .

— وما قاله الأستاذ هويدى فيه خطأ كبير .

فالأستاذ هويدى — بهذا القول — يؤيد تلك الآراء الحادة — التى شجعها هو كثيرا فى كتاباته ، وهى تلك التى تذهب إلى أن المجتمعات الإسلامية مجتمعات بلا عقيدة ، مستواها فى تلك العقيدة هو نفسه مستوى أهل مكة قبل أن يدخل الإسلام قلوبهم .

وبصرف النظر عن هذه اللفتة التى يمكن أن ينشب حولها خلاف ، فالخطأ الآخر الذى لا يحمل خلافا هو أن الاستاذ فهمى ينسى أنه خلال هذه الفترة المكية لم تكن « الشريعة » قد نزلت أصـــلا . . بل كان الأمر الذى تنزل من السماء هو أمر العقيدة فقط ، ولو كانت ثمة أمور شرعية قد نزلت ، لما جاز للمسلمين أن يجتهدوا فى إرجاء تنفيذها . . حتى تثبت عقيدة بعضهم ، ولقد كان بينهم مذبذبون دائماً وتطبق عليهم الشريعة أيضا ، فما ينزل من السماء واضحا لا يجوز أن يكون تطبيقه محل أخذ ورد . . ولو كان أمره يحتاج التدرج لفعله الشارع الحكيم من نفسه . . وذلك مثلما حدث فى أمر الخمر — مثلا ! !

وثمة أمر ثالث خطير لم يدركه الأستاذ فهمى ، ولم يحلله هؤلاء المؤرخون الذين يستلهمون من « الفترة المكية » جواز إرجاء تطبيق الشريعة . بحجة بناء العقيدة .

فلو كان أمر الشريعة جائز الإرجاء لما طبقه النبى عليه الصلاة والسلام فور دخوله إلى المدينة . . وإذا كان أهل مكة قد أخذوا حقهم — كما زعم هؤلاء — فى التمهيد لتطبيق الشريعة . . فهل يا ترى أخذ أهل المدينة هذا الحق . وذلك مع أنهم أول من طبقت عليهم الشريعة ؟ وهل كان بناء « عقيدة » أهل المدينة قد استمر ثلاثة عشر عاما حتى فرضت وطبقت أوامر الشريعة فور الدخول ؟

أليس هذا وهما تاريخيا كبيرا يسلكه كثير من المؤرخين دون وعى ؟ وحتى - عند هذه الحالة - هل نحتاج فى بناء العقيدة لثلاثة عشر عاما توازى « الفترة المكية » أم سنستمر قرونا نبنى العقيدة . . متذرعين بذلك لعدم تطبيق الشريعة ؟ ومن متى تبدأ فترة العقيدة يا ترى ؟ هل ستبدأ مع بداية كل « فترة حكم » كل حاكم فى العالم الإسلامى ؟

• • •

أم سنبدأ من القرن الخامس عشر للهجرة ؟ أم بعد خروج إسرائيل وزوال الأحكام العرفية وإبادة جراثيم الغزو الفكرى ؟

وأخيراً - فى هذه النقطة - هل ترك الرسول عليه السلام والمسلمون تطبيق العقيدة . . لأن مجتمعاتهم - دائماً - كان بها منافقون بلا عقيدة ؟

والخطأ الثانى الذى نفترق عنده تمام الافتراق هو ما قاله الأستاذ فهمى هويدى متسائلا : « لماذا ينصرف جهد الداعين لتطبيق الشريعة إلى تنفيذ حد السرقة ، ولايبذلون جهدا يذكر من أجل خوض معركة توفير الحياة الكريمة للإنسان فى المجتمع الإسلامى وهى فى النهاية معركة التنمية وتحقيق العدل الاجتماعى ؟ » .

وهى معادلة تشبه معادلة البيضة والدجاجة . . من أين نبدأ ؟

لكنى سأختصر الأمر على الأستاذ هويدى وأسأله عدة أسئلة ؟

- هل ترى أن المسلمين الواعين بالإسلام يؤيدون الفقر والتخلف ؟

- ألم تقل أنت شخصيا أن عمر لم يطبق حد السرقة فى عام المجاعة وذلك عندما لم تتوافر شروط التطبيق . . فما المشكلة إذن ؟

- وإذا كنت قد استشهدت بسلوك النبى عليه الصلاة والسلام فى مكة ، وهو استشهاد مردود - فلماذا لم تتساءل معنا : لماذا طبقت الشريعة حين نزولها ، ولم ينظر فى تطبيقها إلى مستوى الحياة الكريمة ؟ وما الحياة

الكريمة يا ترى ؟ هل هي حياة رؤساء مجالس الإدارات والحكام والوزراء أصحاب الأرقام السرية الذين يسرقون أقوات الشعب بالملايين . . أم هي حياة ذوى الدخل المحدود أو الطبقة الوسطى ؟ أليس من الأولى تطبيق القاعدة الشرعية . . ثم إذا كانت هناك حالة تستدعى النظر . . نظر إليها بعين الاعتبار في حد ذاتها ، كما نظر عمر في حالة الغلمان الذين اضطروا للسرقة ليطعموا ؟ أم أننا نلغي القاعدة من أجل الحالات الفردية التي لها ملابساتها والموجودة في كل الأرض وتتعرض لها كل جزئية من جزئيات القانون ؟

تضامن المجتمع المسلم ضرورة :

وما يقوله الإمام أبو محمد بن حزم من ضرورة تضامن المجتمع المسلم على توفير الحاجات الأساسية للإنسان — أمر متفق عليه ، ولا علاقة له بقضية تطبيق الحدود إلا من الجانب الذى ذكرناه .

وأيضا . . فهل غاياتنا العليـــا نحن المسلمين هي تحقيق مجتمع «الرفاهية» [illegible] أم رفاهية» أو «مجتمع سيادة الشريعة» في معركته الثانية ؟

وهل كان المسلمون في المدينة . . وهم الذين تعرضوا للفاقة والحروب المتواصلة والمضايقات الاقتصادية من قريش وأهل الجزيرة جميعا . . هل كانوا يعيشون حياة كريمة . . ويناضلون . . كما يطالب الأستاذ هويدى — في معركة التنمية وتحقيق العدل الاجتماعي ؟ أم كانوا يؤثرون على ذلك كله ، ويضحون بذلك كله ، في سبيل أن تكون كلمة الله « عقيدة وشريعة » هي العليـــا ؟

ولمـــاذا حارب أبو بكر المرتدين ؟ لقد حاربهم من أجل العقيدة . . نعم . . لكنه أيضا حاربهم من أجل الشريعة ، ورفض أن يمنعوه عقال بعير كانوا يعطونها لرسول الله . . لمـــاذا . . ؟ لأن الأمر أمر شريعة . . أمر دين متكامل لا تنفصل فيه عقيدة عن شريعة .

• • •

وبالتالى . . أفلا يرى الأستاذ هويدى أن أهدافنا نحن المسلمين مختلفة عن النظرات المادية التى تهدف إلى « التنمية » أولا . . وربما ثانياً وثالثاً . . أما نحن فعندنا « الإسلام أولا » ! !

وهنا — ياصاحبى — مفترق الطريق ! !

الصعوبة الكبرى :

أما الشبهة الثالثة ، فتضم مجموعة من الاعتراضات أو حسب تعبير الدكتور فتحى عثمان « الصعوبة الكبرى » . . هذه الصعوبة الكبرى التى يسوقها الكاتب المذكور ليست إلا عملية الاختلاف فى بعض الآراء السياسية أو الاقتصادية فى الفكر الإسلامى . . هذا الاختلاف ، سواء فى « باب الحريات العامة وكيفية ممارستها والحدود القانونية لهذه الممارسة » أو فى « تأميم وسائل الإنتاج وفى تحديد الملكية الفردية » موجود وقديم . . والدولة الإسلامية — وهى العين الرقيبة على مدى علاقة الفرد بالمجتمع ومدى حدود صلة الفرد بالدولة — هى التى تحدد مدى الخلل السياسى أو الاقتصادى فى توازن هذه العلاقة ، وهى فى نفس الوقت — بإحساسها السياسى وبنبضها الذى يقيس آلام الجماهير — المخولة بأن ترجح التضييق هنا . . أو الانفراج هناك . . على أنها فى كل ذلك ليست مطلقة اليد ، وإنما هى محكومة « بالشريعة نفسها » . . أى بالنصوص الأساسية فى النظام السياسى الإسلامى وفى النظام الاقتصادى الإسلامى ، وهى تلك النصوص التى لا يجوز الاجتهاد فى مجالها ، لثبوتها قطعا وتواتراً .

* * *

ويسوق الدكتور فتحى عثمان قضايا أخرى أقل فرعية ، يراها جديرة بالبحث قبل تطبيق الشريعة . . وأنا لا أدرى كيف لم يعتصم الدكتور فتحى بكتاباته نفسها فى « آراء من تراث الفكر الإسلامى » — وهو أحد كتبه التى تحدث فيها عن قضايا الموسيقى والحب والمرأة يستلهما أقطاب الفكر الإسلامى كابن تيمية وابن قيم الجوزية والإمام ابن حزم — ولم يقل أحد أن فتحى عثمان

قد مرق أو ارتد . . بل طبع الكتاب غير مرة ، وطبعته دور نشر إسلامية ، وقرأه الإسلاميون بإعجاب ، حتى وإن اختلفوا حول بعض قضاياه .

فهل يجوز فى ظل هذا أن يطالبنا فتحى عثمان بإرجاء تطبيق الشريعة حتى ننتهى من بحث « مسائل الفن التشكيلى والتعبيرى » . . والنحت والتصوير والموسيقى . . وهل يجوز إشراك المرأة مع الرجل فى المسرح والسينما ؟ وهل يجوز تناول « الحب » فنيا . . أم لا ؟ وهل نشاط المرأة وعملها مشروع فى المجتمع الإسلامى ؟ وهل يجوز اختلاطها بالرجال أم لا ؟ وحقوق الأقليات فى المساواة التامة ؟ وإنشاء المعابد الجديدة . . وهلم جرا من التساؤلات التى تتسم بالجزئية الشديدة والتى تتجاهل أن الإسلام ليس تجربة جديدة تطبق لأول مرة فى التاريخ وإنما هو نظام قد طبق فعلا فى مراحل كثيرة ومتعددة من التاريخ ، وأنه — أى الإسلام — قد واجه مثل هذه المشكلات وأكثر منها عبر مسيرته . . وأنه — على يد المفكرين الإسلاميين وأكثرهم سلفيون نصوصيون — لم يعجزوا يوماً عن إيجاد الحل ، بل لم يعجزوا عن الوصول إلى « ترف فكرى » يفترضون فيه مشكلات خيالية ، ويعقدون لها الأحكام ، كما تحتشد كتب الفقه التقليدية .

ملاحظات أخيرة للمترددين :

وثمة ملاحظات أخيرة نقولها لهؤلاء المترددين فى تطبيق الشريعة . . وليس الأستاذان فتحى عثمان وفهمى هويدى إلا النموذج الذى اخترناه ، وإلا فالمترددون الآن قد بدأوا يظهرون بوضوح كاتجاه فكرى يشق طريقه على غير أرضه ، ويفتقد الوعى التاريخى بأهمية الحركة ، ويستغله الأعداء استغلالا بعيد المدى ، كما استغلوا نماذج أخرى من قبل .

وملاحظاتنا — بإيجاز — هى :

١ — إننا نؤمن بالحوار . . لكن الحوار الذى نقصده حوار مسئول يعمل « بوعى تاريخى » ويدرس « مسئولية الكلمة » فى اللحظة و « حجمها »

فى الحركة . و « أبعادها » سلبا وإيجابا . . ولا يترك لنفسه عنان الفكر المجرد بحيث تصبح كلماته — على أحسن الفروض كلمات حق يستغلها الأعداء للباطل .

٢ — والحوار الذى نقصده حوار فى الإجراءات . . والفهم . . والتطبيق . . أى إنه « حوار داخلى » لا خارجى ، يتعاون ، بل وينطلق من أرضية فكرية .

٣ — وفى الحوار . . لا نؤمن « بالضغوط الواقعية » وإلا فهو حوار انهزامى لا ينطلق من قواعد الإسلام وأصول التصور الإسلامى . . فلسنا ملزمين بقبول « فن النحت » ، ولا بقبول « الفنون التشكيلية » بمعطياتها الموغلة فى « اللاعقلية » أحيانا . . أو بتعبيرها عن نزعات لا تتفق مع تصورنا للكون والإنسان والحياة . كما أننا يمكن أن نرفض « أسلوبا » فنيا . . أو « اجتماعيا » لأنه لا يدخل فى صياغتنا الإسلامية الكاملة للحياة .

إننا أصحاب حضارة متكاملة . . لها وسائلها . . ولها تركيبتها . . ولها أهدافها فى الحياة . . ومن الحياة .

(٣)

فتنــة اليســـار الإســلامى

لم يستطع الشيوعيون في معظم بلدان العالم الإسلامي أن يعلنوا على رءوس الأشهاد حقيقة ما يؤمنون به ، وهو أنهم يكفرون بالله ، ولا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ، بل هم لا يؤمنون بظاهرة « الوحي » على وجه الإجمال .

وباستثناء مواقف فردية وعابرة وصل فيها الشيوعيون إلى مستوى هذا التصريح ، من مثل إعلانهم في بلد عربي (سوريا) بأن دور الله قد انتهى في التاريخ ، ومن مثل إعلان (نديم البيطار) في العراق بكلام يشبه الكلام السابق إثر نكبة ١٩٦٧م ، ومن مثل سبهم للنبي محمد عليه السلام في منشور بالسودان ، ومن مثل مبالغاتهم في شخص عبد الناصر في بعض المواقف ، مبالغة جعلته أقرب ما يكون إلى الألوهية . . . !

باستثناء هذه المواقف ، فإن الشيوعيين قد حرصوا على أن يظلوا أمام الجماهير ،وفي حالة عدم تمكنهم من السيطرة بعيدين عن التصريح بحقيقة ما يعتقدون وما يضمرون . أما حين يسيطر الشيوعيون فالويل كل الويل للمسلمين .. فحرق العلماء في الصومال ، وتهديم المساجد على رءوس المصلين وتمزيق المصاحف في عدن . كما أن ما تم في أندونيسيا سوكارنو (قبل أن تقع في يد المبشرين) لا يقل بشاعة عما حدث للمسلمين في الصومال وعدن ! ودعك من ألبانيا ومن جمهوريات الاتحاد السوفييتي الإسلامية ، فتلك آثار قد مسحوها من الوجود محطمين كل حقوق الإنسان ، بأبشع وأفظع ما عرف من وسائل الإبادة الجماعية وهتك الأعراض والفتك بالنساء والأطفال وتدمير كل صلة معنوية أو مادية بالإسلام .

* * *

سياسة الشيوعيين فى العـالم الإسلامى — إذن — سياسة محددة تخضع لاستراتيجية مرحلية ، وتسير وفق توجيهات عليا ، وتتقلب حسب الظرف المتاح .

وكان أبرز ما اعتمد عليه الشيوعيون فى تنفيذ هذه الاستراتيجية المرحلية الملتوية هو الاحتماء فى مصطلح يبدو أن الشيوعيين فى أكثر البلدان التى لا يستطيعون فيها إبراز وجههم الحقيقى وهويتهم الواضحة يحتمون به . .

هذا المصطلح الذى يحتمى فيه الشيوعيون وأصبح علما عليهم ، ودليلا على أسلوبهم فى الفكر والحركة : هو مصطلح « اليسار » .

وكان هذا المصطلح أكبر مدخل لهم إلى قلب العالم الإسلامى . . وباعتباره مصطلحا يستهوى عدداً من الشباب الحانقين على الأوضاع السياسية والاجتماعية التى تحيط بهم ، والتى تتطلب — من وجهة نظرهم — تغييراً ثورياً . . كما أنه يخفى وجههم الحقيقى عن الجماهير !

« وأخيراً صدرت الأوامر من موسكو إلى الأحزاب الشيوعية فى أرجاء العالم بعدم التصدى مرحليا للدين وما يمثله من قيم بصورة صريحة ، ومباشرة ، بل العمل على تطويعه وتحطيم مقاومته بأساليب مرنة ملتوية » .

وكان مصطلح « اليسار » هو « الستار » الجديد الذى بدأ يظهر فى كتابات عبد الرحمن الشرقاوى ، ومحمد عوده ، وسامى داود ، وغالى شكرى ، ومحمد سيد أحمد ، ولطفى الخولى ، وأحمد بهاء الدين ، وأحمد عباس صالح وغيرهم . .

* * *

ولم تنفع الحيلة الشيوعية ، وأسقط الوعى الإسلامى المحاولة ، حتى بعثت من جديد فى مستهل عام ١٩٧٥ م مع ظهور العدد الافتتاحى من مجلة المسلم المعاصر ، التى رأت أن تكون نافذة حرة للمسلم المعاصر ، دون أن تفرض رأيها على العناصر الإسلامية المتحاورة .

وقد فوجىء جمهرة المسلمين جميعاً بمقال للكاتب الإسلامى الأستاذ (فتحى عثمان) يقترح فيه أن تكون مجلة المسلم المعاصر (لسان حال اليسار الإسلامى) ، ويعطى لذلك تبريرات أهمها هذه التفرقة التاريخية فى النشأة بين مصطلحى اليسار والشيوعية ، دون أن يضع الأستاذ الكبير فى اعتباره تلك الظروف التى أحاطت بالمصطلح ، وجعلته مصطلحا مشبوها .. سرقه الشيوعيون من قاموس المصطلحات السياسية ، وأعطوه لأنفسهم .. ونجحوا فى ذلك .

* فهل يا ترى نصر نحن المسلمين على تضييع أعمارنا وأجيال من أبنائنا وأنصاف مثقفينا وتشتيت حركتنا وتمزيق صفوفنا من أجل الإصرار على مصطلح بعينه (!!) وهل عجزت حضارتنا وفكرنا عن إعطاء مصطلح آخر ينتمى إلينا ولا يثير القلق والشكوك والتمزق !

* وكنا نحب أن يتلفت الأستاذ فتحى عثمان حواه ليرى كم خسر إخواننا المسلمون فى لبنان بسبب ما أشيع من انتماء بعضهم لهذا المصطلح !!

* وكنا نحب له أن يتلفت حوله ليرى كم خسر إخواننا المسلمون فى أريتريا .. بل فى تايلاند .. بل فى الفلبين .. بسبب شيوع هذا المصطلح — إن بحق أو بغير حق — عنهم !

* وقبل ذلك وبعده كنا نحب لأستاذنا فتحى عثمان ، وهو أحد المفكرين الإسلاميين ، أن يدرس مصطلح (اليسار) نفسه دراسة أكثر عمقاً ليعرف هل يجوز أن يدخل هذا المصطلح الفكر الإسلامى أم لا ، قبل أن يتبناه . وقبل أن يدعو إلى جعله حزبا من الأحزاب الإسلامية !

* * *

وحقيقة اليسار ، بصرف النظر عن سرقة الشيوعيين له كما سرقوا بعض المصطلحات الأخرى .. حقيقة اليسار أنه دعوة إلى التغيير الجذرى .. والمعارضة .. بأسلوب عنيف .. غير متعقل .. يميل إلى الدموية . وهو

يعارض لذات المعارضة . . ولا يملك عقيدة ثابتة . . بل هو أميل إلى الشباب الثائر الساخط على كل شيء . . المدمر لكل القيم . .

وفي الثورة الفرنسية (كما يحدثنا الكاتب الإسلامي الأصيل عماد الدين خليل في كتابه لعبة اليمين واليسار) . . في الثورة الفرنسية ظهر أسلوبهم الارتجالي الدموي . . فبعد أن أعدم الملك لويس السادس عشر بالمقصلة في سنة ١٧٩٣ م ، قبض كل من (دانتون) و (روبيسبير) الثوريين على زمام الحكم ، فبدأ بهما عهد الرعب الدموي حتى أنه خلال خمسة عشر شهراً من ذلك التاريخ قدم إلى المقصلة (١٢٥١) شخصاً من أهل باريس وحدها ، في العاشر من يونية أصدر روبيسبير قانونا يمنع المحكوم عليهم بالإعدام من حق المحاكمة القانونية . . وخلال شهر واحد بعد هذا القانون أعدمت جماعة روبيسبير اليسارية ١٣٦٧ شخصاً كان من بينهم معظم رفاقه أنفسهم ، بل كان منهم صديقه (دانتون) وزميله المحامي (كاميل ريمولان) .

وهكذا أكل اليساريون بعضهم بعضا . . وفقاً لأسلوبهم المعروف في التاريخ كله ، قبل الشيوعية وبعدها .

* * *

وبا ترى ـ هذا اليسار ـ بهذا الفهم الذي أكده تاريخه (بصرف النظر عن استغلال الشيوعيين له) . . هذا اليسار هل تقبله طبيعة الإسلام . . ؟

ـ المعارضة الدائمة لذات المعارضـــة .

ـ التغيير الجـــذري .

ـ العنف غير العاقل وبلا مبرر فضلا عن الدموية .

ـ تدمير كل القيم بشكل ثوري .

ـ ترديد شعارات غوغائية فارغة المضمون .

ـ العواصف الهائجة والعواطف المجنونة في تقرير مصير الأمم .

ـ التصارع التكتلي .. والتفكك الثوري .. وتبادل التهم لأتفه الأسباب .

هذه النماذج السلوكية المختلفة مما ينضوى تحتها من فكر هائج بلا أصول . .
هل يتقبلها الفكر الإسلامى السياسى ؟ بل هل تقبلها طبيعة علاج الإسلام لمشكلات الحياة ؟ وهل عرف تاريخنا صراعا دائماً بين طبقات معينة . . شبابا يساريين . . وشيوخا رجعيين . . هل لابد من أن يقوم الصراع بين هؤلاء وأولئك ؟ ولمــــاذا ؟

* * *

وقد كان الاستاذ فتحى عثمان حين دعا إلى اليسار الإسلامى أعطاه خصائص كثيرة منها « أنه يحارب الظلم الاجتماعى والسياسى » ، « ويجاهــــد فى سبيل الله والمستضعفين » ، « ويناصر الأيدى العاملة » ، « ويتمسك بالديموقراطية » (لعله يقصد الشورى) . .

وكنت قد سألته فى تعقيبى عليه بمجلة المسلم المعاصر عند هذه النقطة عدة أسئلة شاء أن يغفلها فى رده على . . وبالتالى فما زالت هذه الأسئلة قائمة نتوجه بها إليه :

• وأصحاب اليمين — من أمثالنا يا أستاذ فتحى — ما المطلوب منهم فى هذه القضـــــايا :

— هل يجب علينا مادمنا لا نرضى أن نكون يساريين أن نؤيد الظلم الاجتماعى ؟

— وهل يجب أن نتخاذل عن الجهاد فى سبيل الله والمستضعفين ، وعن مناصرة الأيدى العاملة والتمسك بالشورى ؟ والا اتهمنا باليسارية ؟ وبإيجـــاز :

• ما مواصفات اليمين الإسلامى فى ظل هذه الامتيازات التى حصل عليها اليســــار ؟

• ويرى الأستاذ فتحى « أن اليسار الإسلامى يطالب بالتغيير الجذرى الذى يستوعب الأصول والأسس والجذور فى واقع الكيان المادى والروحى معاً . . فى الإسلام » .

— فهل يا ترى سيطالب اليسار بتغيير العقيدة ، وتطوير القرآن وإلغاء الحديث . . أليست هذه هي جذور كياننا الروحي . . بل والمبادئ ؟

وهل يبقى هذا اليسار إسلاميا مع ذلك ؟

— وكنا قد سألناه أيضـــا :

هل اليسار الإسلامي مجرد مذهب فقهي جديد أم هو تجمع (عقائدي) حركي مضـــاد ؟

ومضاد لمن ؟ لليمين الإسلامي . . أم لليسار غير الإسلامي ؟

— ومن المعلوم أن مبادئ الإسلام — على اختلاف مستوياتها تنقسم قسمين رئيسيين : أصول وفروع . . فأما الأصول فهي ثابتة لا تتغير ، والخروج عليها كفر صراح . . أما الفروع فمن حق الجميع أن يجتهدوا فيها . . دون أن ينقسموا إلى يسار أو يمين .

وقديماً عاش الإمام الشافعي في ظروف أوجبت عليه لونا من الاجتهاد ، فلما رحل إلى مصر عدل بعض آرائه ، وبالتالي فالفقهاء يفرقون بين ما قاله الشافعي في مذهبه (القديم) وبين ما قاله في (الجديد) فهل يا ترى كان الشافعي رضي الله عنه يمينيا ثم انقلب يساريا ؟

. . وهكذا كان فقهاؤنا دائماً يفرقون بين الأصول « الجذور » التي لا تقبل أي تغيير . . وبين الفروع . . !!

فهل لليسار مكان في ديننا إذن ؟

إن تعبير « اليسار » شأنه شأن كثير من التعبيرات خضع لعملية تطور تاريخي ، وانبثق عن ظروف حضارية معينة ، فهو ليس مجرد مصطلح برىء محايد ، بل هو مصطلح محشو بكل خصائص النفسية الأوربية التي تطورت وازدهرت علميا على حساب القيم الدينية ، وأصبحت تقدس « الفردية » و « العقلانية » ولا تضع للدين مكانا في حسابها . . وهذا المصطلح في حقيقته ليس أكثر من تعبير عن تطور أوربي حمل هذه البصمات في اتجاه من اتجاهاته نحو الحرية والثورية في الحقل السياسي والاجتماعي .

وليس بخاف أن ثمة صلات قوية بين المركبات العقدية والفكرية والنفسية وبين الاتجاهات السياسية التى تفرض نفسها عبر عديد من القرون وتمثل تياراً واضحا فى حركة الحضارة .

وفى ظل هذا الوعى فإن محاولة زرع مصطلح من هذا النوع فى تركيبة حضارية مختلفة العقيدة والفكر والتطور التاريخى يعتبر عملا مخالفا لكل قوانين الحضارة . . ولكل أصول الإصلاح .

لقد رفض الفكر الإسلامى كثيراً من المصطلحات الإغريقية والفارسية ، بل رفض بعض الفنون برمتها . . لأنها تعبير عن تطور علمى وفلسفى وفكرى يختلف عن جوهر الإسلام ومنهجه .

* * *

ولعل الاستاذ فتحى عثمان يأخذه العجب حين نقول له صراحة : « إن هذه الشعارات المزيفة هى بضائع يهودية تروج لخدمة أغراض يهودية بعيدة المدى ، ولإحداث بلبلة عالمية ، وتفكك فى كل عقيدة أو مذهب من مذاهب العالم ، بحيث يساعد على أن يبقى اليهود وحدهم فى نهاية المطاف .. شعبا يقوم على عقيدة . . ويحارب باسمها وحدها . . ويحمل ثوراتها فى دبابته .. بينما نبقى نحن بلا عقيدة . . نقاتل تحت كل شعار إلا شعارنا الإسلامى الصافى : لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

ونحن على الرغم من ثقتنا الكاملة فى سلامة نية الأستاذ فتحى عثمان وفى نزاهة اتجاهه إلا أننا نضع أمامه الحقيقة السابقة ليتحمل مسئولية دعوته أمام الله ، وحتى لا تكون له فى أعناقنا حجة . .

« وبروتوكولات » حكماء صهيون . . تقول فى مسألة هذه الشعارات البراقة المستحدثة التى تشغل بها الطاقات والعقول عن حقيقة التدبيرات الصهيونية . . تقول البروتوكلات ما نصه :

« فى كل الأزمان كانت الأمم – مثلها مثل الأفراد – تأخذ الكلمات على أنها أفعال ، كأنما هى قانعة بما تسمع . ولذلك فإننا – أى اليهود –

رغبة فى التظاهر فحسب — سننظم هيئات يبرهن أعضاؤها بالخطب البليغة على مساعداتهم فى سبيل التقدم ، ويثنون عليها . وسنزيف مظهراً تحررياً لكل الهيئات وكل الاتجاهات ، كما أننا سنضفى هذا المظهر على كل خطبائنا . وهؤلاء سيكونون ثرثارين بلا حد ، حتى أنهم سيهلكون الشعب بخطبهم وسيجد الشعب خطابة من كل نوع أكثر مما يكفيه ويقنعه ...

وهذا — فى الحقيقة — هو الدور الوحيد الذى تلعبه مثل هذه الشعارات البراقة التى تحجب العقول عن التفكير ، وتحول قطاعات عريضة من الشباب إلى ثائرين ثرثارين أقرب إلى الغوغائية والفوضوية واللامبالاة بعواقب الأمور .

أما بالنسبة لنا فى العالم الإسلامى ، فإلى جانب هذه الآثار التى تحدثها هذه الشعارات فى العالم كله ، فإننا — من واقع تراثنا وقيمنا — نرى أن أى تغيير أو إصلاح ليس أمامه إلا أحد طريقين : إما طريق الإسلام ، وحينئذ يفقد اصطلاحا اليمين واليسار معناهما إزاء قاعدة عقائدية ، وتصور عميق شامل يستهدف خير الإنسان فرداً وجماعة (كما يقول صديقنا الدكتور عماد الدين خليل فى كتابه عن لعبة اليمين واليسار) وإما أن يسلك هذا التغيير أى طريق آخر علمانى وضعى فحينئذ يستوى اليمين واليسار ، وحينئذ لابد أن يتعرض هذا التغيير أو هذا الاصلاح للذوبان فى غمار التجربة الغربية ، يمينية كانت أم يسارية ، فيفقد بذلك شخصيته واستقلاله وأصالته ، ومن ثم يبرز اصطلاحا اليمين واليسار كهدفين فى حد ذاتهما إن عاجلا أو آجلا .

(٣)

مدرسة عبادة «العقل» في الفكر الإسلامي

— ما معنى أن يردد كثير من المسلمين - دون تمحيص - أن الإسلام دين العقل ؟

— ما دلالة هذه الإضافة ؟

هل تعنى أن « الإسلام » انبثاقة عقلية ، كما هى الدلالة اللغوية الظاهرة للإضافة فى قولنا (دين الله) أو (مذهب ماركس) ؟

— هل المقصود بها أن حقائق الدين لا تتعارض مع العقل ؟

— وأى عقل هذا الذى لا تتعارض حقائق الدين معه ؟

هل هو (عقل شرقى) أم (عقل أوربى) ؟ وهل هو (عقل مثقف) أم (عقل جماعى غوغائى) ؟ وهل هو (عقل العربى البدوى) الذى لم يستطع أن يعقل — بمنطق عقل عصره — كيف يسرى بمحمد عليه الصلاة والسلام من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فى ليلة واحدة ؟ . أم عقل القرن العشرين الذى يسيغ — بمنطق عقل عصره — دوران الصاروخ حول الأرض عشرات المرات . . . وصعود المركبة الفضائية إلى القمر ؟

وكيف يمتد خيط واحد على امتداد التاريخ منذ نزل القرآن وإلى قيام الساعة . . ليحكم ذبذبات العقل ، وتأثراته ، ومكوناته الجغرافية والتراثية ، وظروفه الصحية ، وغيرها . . ليستخلص لنا من ذلك كله . . حكما عقلياً يرى بمرآته أن الإسلام (دين العقل) ، يتفق مع العقل فى كل الحالات ، ومع كل المؤثرات .

أليس ذلك حكماً تعسفياً على مسيرة العقل نفسها ؟

* * *

إن أغلب الظن عندى أن الذين يلوكون هذه العبارة وأمثالها إنما يريدون بها — عن حسن نية — أن العقل السليم لن يجد فى حقائق الإسلام شيئاً غامضاً أو متناقضاً مع أوليات العقل ، وذلك على العكس من الأديان الأخرى المليئة بالألغاز والطلاسم .

ولربما أراد آخرون — عن سوء نية — أن الإسلام نتاج عقلى محض ، شأنه شأن المذاهب البشرية ، وعلينا أن نخضعه لكل مقولات العقل ونظرياته . وليس هؤلاء من حديثنا فى شىء . . وإنما ينصب حديثنا على (أصحاب النوايا الطيبة) ممن يريدون الحق ، ولا يكادون يهتدون إليه سبيلا . . . فإليهم — وحدهم — نتوجه بهذه الكلمات .

* * *

وسواء شاء هؤلاء (العقلانيون) أم أبوا ، فإنهم سينتهون بمفهوم الإسلام الكلى إلى دائرة مغلقة صغيرة توشك أن تكون جزءاً أو عطاء واحداً — وإن كان كبيراً — من معطيات العقل . وسيجعلون من دائرة الإسلام الرحبة الفسيحة ، التى تمتد إلى آفاق لا يكاد العقل يرنو إليها ، بل إنه لا يستطيع بكل أدوات « الفطرة » فيه ، وبكل رصيد التاريخ وتجاربه التى ورثها ، وطورته ، — لا يستطيع بكل هذا أو ذاك أن يلج بابها إلا حذراً ، وبعون من دائرة (الوحى) التى سبقته إلى الوجود ، على الأقل فى مجال السبق الزمنى ، (عندما علم الله آدم الأسماء كلها وحياً) ، فضلا عن مجال « القدرة الذاتية » التى جعلت من « العقل » طاقة واحدة من طاقات « الوحى » فى جزئيات من أجزاء الواقع ، سمح له بها « الوحى » نفسه . .

أما الدوائر العظمى ، فقد وقف العقل عاجزاً عن مجرد ارتياد مجالها ، فهو لم يستطع أن يخرج — إلا قليلا — من جاذبية (غرائزه) ، ولم يكن خروجه إلا بواسطة (الوحى) ، كما أنه لم يرتفع إلى آفاق ما وراء (دائرة حواسه) إلا قليلا ، ولم يستطع — حتى الآن — أن يعقل نفسه . . أى ما هو العقل ؟ ومم يتكون ؟ وما غذاؤه ؟ وما حجم الوراثة فيه ؟

وما الروح ؟ بل إن قضايا جسدية كثيرة ما زال العقل عاجزاً عن إدراك أبعادها ، على الرغم من التركيز الهائل على علوم الجسد خلال القرون الأخيرة .

فأى عقل هذا الذى لم يستطع أن يفهم نفسه ، ولا « الكون » المحيط به ، ولا « خالق الكون » ؟

وماذا ينتظر لإثبات عجزه بعد ذلك ؟

* * *

والحقيقة أن العقل جزء من الإسلام . . ومضاف إليه ، بمعنى أن التعبير الصحيح هو أن نقول « عقل الإسلام » أو بتعبير آخر « محاولتنا فقه الإسلام » أو (فهم الإسلام) . . .

وقد ننجح فى بعض هذه المحاولة ، وقد نفشل ، لكننا فى هذه الحال على الأقل نكون قد وضعنا العقل فى حجمه الطبيعى . . وأحللنا الإسلام مكانه الصحيح من الإطار الكونى . . كما أننا فى هذه الحال نكون قد جنبنا الإسلام كثيراً من أخطاء اجتهاداتنا « العقلية » ، وهى أخطاء لابد منها .

وبالتالى فإن المعادلة تتضح حين نقول : **إن دور العقل هو أن ينسجم مع الدين ... وليس دور الدين أن ينسجم مع العقل** .. وإذا كانت هناك أديان أصبح نصيب العقل فيها صفراً لكثرة ماأدخل البشر عليها من خرافات .. فإن من المؤكد أن العقل سيجد لنفسه مساحة لائقة به ومناسبة لحجمه فى الإسلام . ذلك لأنه الدين الوحيد الذى لم تدخله أهواء البشر . . ولم تقحم نفسها على حقائقه خرافات (العقل) فى كثير من عصور الكهانة والطغيان .

وهذه هى المعادلة الوحيدة المقبولة فى العلاقة بين العقل والإسلام .

* * *

إننا نذكر هذه الحقيقة ، لنندلف منها إلى معالجة قضية من أخطر قضايا الفكر الإسلامى فى العصر الحديث . . .

ولقد ظلت هذه القضية تنمو فى غيبة الرؤية الإسلامية المتزنة الموصولة بأصول التصور الإسلامى ، من قرآن وسنة وإجماع ، حتى تكونت لها مدرسة قد تختلف فيما بينها فى بعض الجزئيات ، لكنها تشترك فى خطوط كبرى ، تجعل من السهل النظر إليها « كمدرسة واحدة » فى الفكر الإسلامى .

وفى رأينا أن التطور التاريخى لهذه المدرسة ، قد بدأ مع الجولات الأولى التى احتك فيها الفكر الإسلامى بالحضارة الأوربية التى شقت طريقها فى ساحة الاختراعات والابتكارات بالعقل وحده الذى هو السلاح الكبير فى عالم الإبداع المـــادى . .

ومع رفاعة الطهطاوى ، وعبد الرحمن الجبرتى ، وجيل جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، بدأت بواكير هذه المدرسة تتضح على نحو لم يكن قد أخذ كل قسماته بعد . .

ولقد كان ثمة عذر لبعض رجال المسيرة كالسيدين الفاضلين محمد فريد وجدى ، والطنطاوى جوهرى . . اللذين حاولا الدفاع عن الإسلام بسرقة سلاح الخصم . . أى بسلاح الحضارة الأوربية الزاحفة الذى هو (العقل والعلم) . . ولا شىء غير ذلك .

ومع أن كتابتهما لم تخل من سقطات فإن مما يشفع لهما ما عرف من حبهما للإسلام ، وتجردهما فى الدفاع عنه ، وبيعهما الثمين والغالى مما يملكان دفاعاً عن دينهما . . . فهما قد اجتهدا عن إخلاص وأخطئا . . فلهما أجر المخطىء المجتهد .

• • •

ثم تطور الأمر بالمدرسة مع ظهور حركة الإخوان المسلمين ، التى كان لبعض رجالها ، وعلى رأسهم الإمام الشهيد حسن البنا ، فضل عرض الإسلام بطريقة سلفية . . قرآنية . . لا تعتسف النصوص . . ولا تتكلف الأسلوب . . ولا الضغوط « العقلانية » باسم التعليل وحكمة المشروعية .

ولا تلجأ إلى أساليب الإقناع الخطابى غير الموضوعى . . بل عمودها البساطة والوضوح والصدق . .

فلم تجد هذه المدرسة وسيلة إلا أن تدخل هذا التجمع الإسلامي الكبير ، فلعلها تجد فيه فرصة إظهار قدرتها على الصراع العقلي . . دون أن تمد رؤيتها لتفقد فكرها نفسه ، ولتقوم حجم أدوات بحثها ، ولتعرف مدى ملاءمة هذه الأدوات للبحث في حقائق الإسلام ، ولتنقد « العقل » ولو « بالعقل » وحده .

وقد كان أولى بها ، وهي مدرسة تقتبس كثيراً من آرائها من الإمام أبي محمد علي بن حزم ، أن تنظر في منهج ابن حزم بنظرة موضوعية ، لتدرك أن هذه الآراء « التقدمية » — كما يسميها الدكتور محمد فتحي عثمان — إنما وصل إليها ابن حزم من خلال نظره في القرآن والسنة — قبل أي شيء — بمنهج ظاهري وصفه بعض التقدميين وهو الاستاذ (عبد المتعال الصعيدى في كتابه المجددون في الإسلام) بأنه (رجعية) لالتزامه بظاهر النص . . ولرفضه هذه (العقلانية) التي يتعبد في محرابها هؤلاء ، بل إنه — أي ابن حزم — ليرفض الرأي كله في الدين . ويعتبره سواء جاء عن طريق القياس أو الاستحسان أو سد الذرائع أو المصالح المرسلة . . يعتبره قولا في دين الله بالباطل . . . بل إنه ليرفض ما سوى القرآن والسنة والاجماع والدليل من مصادر التشريع . . فلا قياس عنده ولا استحسان ولا غيرهما من المصادر الذائعة بين فقهاء الرأي .

فكان أولى بهذه المدرسة بالتالي أن ترجع إلى القرآن وإلى السنة ، قبل العقل ، وأن تجعلهما زادها الكبير ، بدل أن تعرضهما على محك العقل ، وبدل أن تعطيهما مساحة صغيرة جدا في الحياة ، بينما تعطى العقل حق معالجة كل قوانين الاقتصاد والسياسة والاجتماع . . . دون أن تنظر في (الوحي) الذي جاء في هذين المصدرين الكريمين .

* * *

وقد تطور الأمر بهذه المدرسة إلى محاط كان لابد أن تصل إليها ، فقدمت « العقل » على « النص » ، وفرضت « المذهب » على « المنهج » والرؤية « العصرية » على الرؤية « الموضوعية » حتى مع ورود بعض التعارض

فى كثير من الأحايين — بين ما يراه « النص » وما يراه « العصر » ، إذ أن « النص » ينتمى إلى صياغة للحياة قد تكون متباينة مع بعض معطيات « العصر » ومع ما يسمى بالرؤية العصرية .

وقد انبثق عن هذه المدرسة اتجاهات جنح بعضها إلى أقصى اليسار . . فحاولت تطويع الإسلام « لليسارية » زاعمة أن الفروق التاريخية فى النشأة بين مصطلحى اليسار والماركسية ، كافية لأن تخضع الإسلام للرؤية اليسارية ، دون أن نكون قد قمنا بعملية « ماركسة » للإسلام .

كما زعم بعض تلامذة هذه المدرسة أن بالإمكان الاحتفاظ بالإسلام ، والتصور الإسلامى للحياة ، مع إخضاعنا هذا الإسلام للأسلوب « الغربى » فى الحياة . . . والنظر إلى الإسلام على أنه مجرد « دين لاهوتى » شأنه شأن أى مذهب من مذاهب الكنيسة المسيحية .

* * *

لكن الخيط المشترك بين أفراد هذه المدرسة على أية حال هو « تقديس العقل البشرى » أو « تأليهه » بمعنى آخر . .

ومع أننا لا ننكر (دور العقل) فى حدود حجمه الطبيعى ، ومع أننا أيضاً على طرفى نقيض فى رؤيتنا للإسلام مع الاتجاهات الصوفية التى تكاد تلغى دور العقل ، كما أننا — من جانب آخر — لا نقول « بتعبدية الأحكام » بهذا الأسلوب الحاسم الشامل الذى ذهب إليه الإمام أبو محمد بن أحمد بن سعيد بن حزم ، الذى رفض أسلوب « التعليل » كله .

مع كل هذا فنحن نقدم « النص » على « العقل » و « المنهج » على المذهب ، ونرى أن الوحى سابق للعقل ... وأن على العقل أن يحاول محاولات جادة مستمرة لكى يصحح خطواته لكى تنسجم مع الوحى . . الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . بخلاف العقل الذى يمكن أن تهب عليه أعاصير الباطل من كل مكان ! !

إن هذا هو « الفيصل » الكبير بيننا وبين هذه المدرسة .

• • •

على أن هذه المدرسة ، وهى لاهثة فى طريقها ، لكى تفرض هذا « المذهب العقلانى » على الإسلام قد عمدت – فى سبيل تحقيق منهجها – إلى عدم الاعتراف « بأحاديث الآحاد » مع أنها تمثل جزءاً كبيراً جداً من حيز الكلام النبوى الشريف ، وذلك حتى تفسح (لعقلها) المجال ، لكى ينطلق بعيداً عن النصوص التى تقيد خطاه . . .

ولم تقبل هذه المدرسة إلا الحديث المتواتر ، مع أنه كالذهب قليل جداً .

وقد عمدت هذه المدرسة إلى رفض القاعدة الأصولية : « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » وجعلت كل حادثة من الحوادث التى تكلم فيها الرسول يقتصر حكمها على الحادثة نفسها . . . أى إنها جردت كلام الرسول عليه الصلاة والسلام من امتداده التشريعى . . . ولهذا تحدث أحدهم – وهو شخصية معروفة – فأفتى بأن الحجاب خاص بنساء النبى لأن آية الحجاب نزلت فيهن . . فلا يجوز تعميمها . . متجاهلا آيات الحجاب الأخرى ومتجاهلا أيضاً بأن ما يطبقه زوجات النبى أحرى بالمسلمات الأخريات أن يطبقنه ما لم يرد نص يقيده بهن !!

وتلجأ هذه المدرسة إلى توسيع رقعة حديث : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » . الذى بينه أفضل بيان ابن حزم الأندلسى ، بل ذهب إلى تضعيفه . . . والمهم أنها تكاد تلغى بهذا الحديث كل ما ورد من نصوص فى الاقتصاد والسياسة والاجتماع . . مع أن هذا الحديث ينصب على الأمور التى لا جدال فى خضوعها للتطور البشرى كالتطورات التقنية الصناعية والزراعية والطبية . . . وما إليها . . .

• • •

ونستطيع — فى نهاية هذا البحث — أن نوجز النقاط الكبرى التى يجب بحثها فى منهج هذه المدرسة . وهى نقاط .. تركز عليها هذه المدرسة فى الأيام الأخيرة . . . وأرى ضرورة تناولها من وجهة نظر « الوحى » الكريم . وهذه النقاط هى :

أولا : موقف هذه المدرسة من تطبيق الشريعة الإسلامية ، وهو موقف يكاد يصل إلى حد الرغبة فى صرف النظر عن هذه القضية ، وتبرير الواقع ، مع إعطائه بعض الرتوش وفقاً « للكليات » الإسلامية .

ثانياً : نظرهم للإسلام على أنه « فكر » وليس « دينا » قبل كل شىء . وما الفكر إلا انبثاقة من انبثاقات هذا الدين — وهذا رأينا بالطبع —

ثالثاً : تبنى بعض هؤلاء لانتماءات سياسية حادة تتباين فى بعض تصوراتها مع الإسلام ، كقول بعضهم باليسار الإسلامى ، وكدعوة بعضهم لنوع يمكن أن نسميه (علمانية إسلامية) .

وأخيراً . . فإننا نأمل أن يتاح لنا تتبع هذه المدرسة بالدرس والحوار (من وجهة النظر الإسلامية) سواء فى هذه المجالات ، أو فيما يتصل بها من قضايا تتفرع عنها .

(٤)

تغريب التربية في العالم الإسلامي

أهمية التربية فى التـاريخ :

لعله ليس من المبالغة القول بأن العملية التربوية من أخطر القضايا فى التكوين الحضارى لأية أمة من الأمم . .

• الإنسان يولد صفحة بيضاء خالية من كل البصمات إلا بصمات خالقه سبحانه . . بصمات الفطرة المتجهة إلى كل ما هو خير . . النزاعة إلى تصعيد نفسها ، لتحقيق رسالة الإنسانية فى الحياة .

• وهذه الصفحة لا تملؤها إلا العملية التربوية بفروعها المختلفة ، أعنى بأدواتها المتشعبة . . بالأسرة وما غرس فى الأبوين من قيم واتجاهات وسلوك ، وبالمجتمع وأدوات التأثير الإعلامية فيه ، وبالمدرسة وما تركز على زرعه فى العقل من قضايا تفرض عليها طابع القداسة والتلقى دون مناقشة خارج إطارها .

من هنا يمكن تسمية الإنسان . . الحيوان المربى ، إذ هو فى حقيقته انعكاس للعملية التربوية ، وبقية عناصر التأثير فيه لا تعدو أن تكون المواد الخام الفطرية الأولية التى يمكن أن يستوى فيها – أو يقل – مع كائنات أخرى ؟

وفى التاريخ ، وعبر مراحل سعى الإنسان الحثيث ، كانت العملية التربوية من أبرز قضايا الإنسان .

ولسنا هنا بصدد تتبع التربية فى التاريخ ، أو ما يعرف بتاريخ التربية ، فلذلك مجالاته وأبطاله المتخصصون .

لـكن المؤكد أن التاريخ حفل باهتمام بشرى ضخم بالعملية التربوية .

ولعل الفلاسفة الذين عرفناهم (بمعنى الفلسفة العام) كانوا من أبرز علماء التربية ، ومن هنا عرفوا — أو عرف معظمهم — بالمعلمين (المعلم الأول — أرسطو ، وأطلق المعلم الثانى على الفارابى . . . وهكذا) . .

والأجدر من ذلك بالتنبيه ، وبالدلالة الموحية القوية ، أن زعماء موكب التاريخ ، ورواد حركته الحقيقيين . . أعنى الأنبياء كانوا كذلك معلمين ، ولعل فيما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام عن نفسه « إنما بعثت معلماً » أقوى دلالة على وظيفة الرسل الـكبرى .

والارتباط فى التاريخ قائم وقوى بين الفلسفة بمعناها العام — كعلم لتربية العقل ولتحصيل المعرفة — وبين العملية التربوية ، كما أن هذا الارتباط قوى كذلك بين العملية التربوية وسائر فروع المعرفة ، أليست المعرفة ماء الحياة المتدفق فى جداول مناهج التربية ؟ وما قيمة المـاء إذا لم يؤد وظيفته فى الحياة ؟ أعنى ما قيمته إذا كان ماء راكداً سيئاً لا يروى من ظمأ ، ولا يخصب أرضا ، ولا يعطى الحياة معنى الحياة .

إن المعرفة لا تتجلى قيمتها ، ولا تثمر ثمارها المرجوة ما لم توضع فى مناهج تنظم الاستفادة منها ، وما لم تكن هذه المناهج ملائمة للتربية التى ستعمل فيها . . إذ المـاء المالح لا يصلح لرى الإنسان ولا الزروع بحالته التى هو عليها . كما أن كميات كبيرة من المـاء العذب قد لا تصلح لتحويل أرض جدباء صخرية إلى حقول تعطى الفواكه والثمار والأشجار .

الانحـراف الخطـير فى التربية :

من هنا يبدو أكبر انحراف فى العلمية التربوية ، هو الـذهاب — دون وعى — إلى استيراد مناهج للتربية قد لا تكون صالحة للتربة وللأرض التى يراد غرس بذور التربية فيها .

وفضلا عن الاختلافات المعروفة بين مكونات الشعوب من عقائد وثقافات وعادات وتقاليد ومناخ ومتطلبات حياتية ومستقبلية . . فضلا عن ذلك فإن الاختلاف فى السيكولوجية ، وفى نوعية التطور التاريخى والمستوى

الحضارى للشعوب ، كافيان لأن يجعلا عملية نقل مناهج التربية — دون وعى — من أخطر الانحرافات التى تصيب الشعوب الباحثة عن النمو ، أو الدارجة فى مسالك التطور .

ولعله ليس من باب المصادفة أن الله سبحانه أرسل كل رسول بلسان قومه ليبين لهم .

ومن المعروف أن اللسان يعنى انعكاس القوى الواعية المحركة فى الإنسان . . إذ من البديهى أن تكون تربية طليعة قائدة مؤمنة تستوجب التفاهم المباشر المنطلق من الخلفية التاريخية والتراثية ومن الوعى بنقطة الانطلاق نحو الغاية العالية العالمية .

ولن يستطيع أى إنسان القيام بذلك عندما يبدأ بغرس القيم فى نفوس وعقول يفصلها عنه آماد من التاريخ والتطور والمكونات النفسية والاجتماعية .

ومن هذا الباب يدخل إرسال الله أيضا الرسل بمعجزات من نوع خارق . . لكنها تعتبر التصحيح والميزان والحقيقة بالنسبة لقومه ، إنها من نوع ما بأيديهم ، لكنها الطريق الصحيح والحجة الناصعة ، التى يتجلى من خلالها الله ، لإظهار عجز البشر ، وحاجة البشر .

ويستطيع المرء أن ينظر فى معجزات الأنبياء ليعرف مدى صلتها بالبيئة والزمان اللذين جاءت المعجزة لهما . فحيث كانت المحاولات الطبية أكثر تقدما . . جاء عيسى عليه السلام يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ، وحيث كانت المحاولات كبيرة للتقدم فى الشعوذة والسحر جاء موسى عليه السلام بعصاه تلتهم ما يأفكون ، وتظهر الحق فى القضية ، وحيث كان العرب يعيشون عصر الكلمة البليغة والمعلقات وأسواق الكلمة الشاعرة جاء الإسلام بالقرآن على نسق من البيان لم يعرفه العرب فى لغتهم الشاعرة أو الناثرة ، وتحداهم به . . فعجزوا ، واضطر كبير من أعداء الإسلام إلى وصف القرآن بأن « أعلاه مثمر ، وأسفله مغدق ، وله حلاوة ، وعليه طلاوة ، وما هو من قول بشر » .

إن العملية التربوية لابد أن تكون ذات صلة بالبيئة ، بتحديات البيئة ، وبمستوى البيئة ، ولابد أن تكون ذات هدف بالنسبة لمواصفات البيئة وعاداتها .. وإلا فإنها ستكون كقصيدة شعر إنجليزى تلقى على مسامع من لا يعرفون كلمة فى الإنجليزية .

لقد تكون القصيدة لشيكسبير ، ولقد تكون فى قمة الروعة بالنسبة للذين يفقهون الإنجليزية ، أما هؤلاء المخاطبون بها . . الذين لا يفقهون الإنجليزية ، فإنها لا تعدو أن تكون بالنسبة لهم مجرد أصوات كتلك التى يطلقها أى طير . . أو أى حيوان أليف .

من مظاهر الانهيـــار :

ومنذ ظهر فى مصر « محمد على باشا » على مشارف القرن التاسع عشر ، وهناك محاولات كثيرة للتغريب . . فلقد بدأ هذا الجندى الآبق يتوسل إلى فرنسا ويرسل إليها البعثات تلو البعثات ، ثم سار أبناؤه على نفس النهج حتى بلغ الأمر بحفيده إسماعيل باشا أن حاول أن تكون « مصر قطعة من أوربا » .

وسار الأمر فى مصر على هذا النحو الذى لم يزد مصر إلا تأخراً ، فضلا عن أنه سبب شللا وصراعا بين الوافدين من ذوى الثقافة النصرانية المادية المستوردة ، وبين أبناء التراث الذين يحاولون التطوير من الداخل — مع الاستعانة بالخارج كذلك — وبواسطة هذا الصراع تبلبلت أساليب التربية الصحيحة فى مصر وفى العالم العربى ، وفقدت الجامعة الإسلامية الأزهرية العريقة دورها الريادى ، حتى جاء النظام الثورى المادى فجردها من مهمتها التاريخية ، وفرض عليها طابعا علمانيا حولهـــا به إلى جـامعة عادية كأية جامعة أخرى .

وفى المغرب لا شك حدث نفس الشىء ، وفقدت جامعة القرويين دورها . . وأصبحت أشبه بدار تاريخية لمجرد الذكرى وحفظ الآثار .

وفى الجزائر كان التغريب عاما ورسميا بواسطة الأدوات الاستعمارية المسيطرة .

وفى سوريا ولبنان عملت المدارس الأجنبية من الجماعات التبشيرية عملها فى عملية التغريب . . وفى إيجاد قيادات لا تنتمى إلى الأمة بوشيجة إلا وشيجة « المغترب بالوطن الأم » . .

أما فى تركيا ، حيث مقر آخر خلافة إسلامية ، فقد انتهى الأمر إلى أكبر عميل للتغريب اليهودى ، وهو مصطفى كمال أتاتورك (الماسونى) الذى تشدد فى التغريب . . بدءا من الحروف اللاتينية ، وانتهاء بإزالة الطربوش ولبس القبعة « البرنيطة » . .

لقد تم عبر هذا كله تحويل العالم العربى إلى منطقة تجارب للعمليات التغريبية ، وإلى منطقة فراغ تتصارع فيها كل المناهج التربوية والمذاهب الاجتماعية والأفكار الشاذة التى تظهر فى بعض حوارى وشوارع المجتمع الأوربى .

ولم يستطع المجتمع العربى أن يرسو على حال صحيح ، كما أنه لم يهدأ لحظة واحدة من الصراع الذى ينهك قواه ويشل حركته .

وبما أن المناهج المستوردة والعمليات التغريبية ، والمحاولات التعليمية التى لم تراع ظروف التراث والتطور التاريخى والوضعيات الاجتماعية والفكرية . بما أن هذه كلها لم تنجح – ولا يمكن أن تنجح فى زرع الفكرة التغريبية الدخيلة ، مكان النبض القلبى الأصيل – فإن الشك والقلق والضياع كان هو الحصاد لوضعية من هذا النوع .

وكما لم يلتئم العرب تربويا وفكريا . . فإنهم لم يلتئموا عسكريا وسياسيا وعقائديا .

وتحولوا إلى شتات مبعثر يوالى بعض منهم هذا المنهج أو تلك الفكرة ، ويتبع بعضهم الآخر هذه المدرسة أو هذا النهج .

ووسط هذا التيه والحيرة والضياع . . توالت على العرب نكبات من كل جانب ، ووجد أعداؤهم الحضاريون الفرص سانحة لزرع كل بذور الشقاق بينهم . . ولتحويلهم إلى أمم بعد أن كانوا أمة ، وإلى عقائد بعد أن كانوا عقيدة ، وإلى عناصر متصارعة ، بعد أن كانوا يخضعون لراية واحدة . . تعمل لها كل معاهد التعليم ومدارس التربية فى الأندلس والمغرب والمشرق وصقلية وغيرها .

من محـــاولات الهـــدم :

لقد دأب زعماء الهدم فى العصر الحديث على تفريغ العملية التربوية من مضمونها كعملية توجيهية وحضارية .

* فحاولوا أولا فصل العملية التعليمية عن العملية التربوية ، وحاولوا جعل التعليم مجرد حشد للمعلومات يفتقد القدوة والتوجيه والبناء والإيجابية ، وبالطبع لم يعدموا العناوين أو اللافتات التى يغلفون بها أغراضهم ، فنادوا بالحرية ، وبتكوين الذاتية ، وباستقلال الشخصية لدى التلميذ . . وما إلى ذلك .

* وحاولوا القضاء على التعليم الإسلامى المستقل القادر على إيجاد قيادات قادرة على التعبير عن الفكر الإسلامى . . ولقد ألبسوا ذلك ثوب الدمج بين التعليمين : المدنى والدينى لفتح باب الحياة أمام علماء الدين . . أى بتعبير آخر لتصفية علماء الدين ، وتحويلهم إلى موظفين عاديين ، أو مدرسين من الدرجة السابعة . يلتزمون بالمناهج المقررة عليهم شأنهم شأن التلاميذ . . وكما ذكرنا سلفا فإن القيادة الثورية فى مصر فى عصر على صبرى وشعراوى جمعة وغيرهما قد نجحت فى تفريغ الأزهر من مضمونه التراثى والتاريخى ، وحولوه — تقريبا — إلى جامعة علمانية .

* وقد حاولوا كذلك إفساد العملية التربوية ، عن طريق المطالبة بالاختلاط . . وتحويل الجامعات والمدارس الثانوية إلى منتديات للترفيه ،

ولإشباع الغرائز السفلى ، ولتمييع قضية التربية ، بل ولتعليم الجنس ، وإنشاء العلاقات العاطفية ، ولتبرير كل ما هو سافل وتافه من السلوك .

• وقد حاولوا تشجيع العاميات المختلفة لقتل الوحدة العربية واللغة العربية .. لغة القرآن والتراث والتاريخ ، كما حاولوا إحياء الوثنيات المندثرة والتاريخ السابق للإسلام للشعوب العربية ، والتجنى على التاريخ الإسلامى وتشويهه ، وحاولوا تفضيل القوانين الوضعية على القوانين الإسلامية . . وسلكوا كل درب فى التربية ، واستغلوا كل حادثة . . لكى يصلوا إلى تفتيت العرب ، وإلى وأد حضارة الإسلام الوحدوية ، وإلى بعث القوميات المحلية المنتنة . . لكى يضمنوا فى النهاية « وحدة تغريب وضياع العالم العربى والإسلامى » .

ولقد تضافرت جهود كثيرين فى هذا المجال كان من أبرزهم « الدكتور القوصى والدكتور طه حسين ولطفى السيد وسعد زغلول وقاسم أمين والدكتور محمد خلف الله (صاحب القصة القرآنية) وسلامة موسى ولويس عوض وطائفة من المبشرين على اختلاف مشاربهم والأحزاب التى حكمت العالم العربى تحت شعارات قومية » .

ومع ذلك . . تقرير غريب :

ومع ما آل إليه أمر العالم العربى ، ومع تكرر الشكوى والفشل فى التربية فى العالم العربى ، ومع عديد من المؤتمرات التى عقدت ، والتى كشفت عن الخلل الموجود فى العملية التربوية ، وبأن ثمة خططا وتصورات مغلوطة فى مناهج الدراسة ، وفى التأليف .

مع كل ذلك نجد فى التقرير الذى صدر بالجريدة الرسمية بمصر عن البعثات الدراسية الخارجية التى ستقوم بها وزارة التعليم العالى بمصر لسنة ١٩٧٣ م نجد حقائق غريبة :

• بينما تشكو الأمة العربية من ضعف فى النواحى العلمية والتكنولوجية

لا نجد العلوم المتعلقة بهاتين الناحيتين تحتل أكثر من خمس بعثات من بين أكثر من مائتى بعثة .

• هذا بينما تحتل دائرة التربية وطرق التدريس والعلوم الإنسانية ، وهى تلك العلوم التى يجب أن تتصل بالبيئة والتراث والوضعيات المحلية المختلفة . . تحتل هذه الدائرة أكثر من مائة وعشرين بعثة من بين البعثات المذكور عددها سابقا . . أى إنها تزيد على النصف من البعثات ، حتى ليخيل للمرء أن مخططى البعثات يعمدون إلى مزيد من التمييع والتضليل بالنسبة للعملية التربوية فى العالم العربى . نعم فى العالم العربى لأن هؤلاء الأساتذة غالبا ما يوفدون إلى جامعات عربية ويتركون بصماتهم فيها . .

• ونجد مثلا فروع الطب والتمريض والصيدلة على أهميتها لا تحتل أكثر من عشرين بعثة من بين البعثات الموفدة للعام ٧٣ — ١٩٧٤ م .

• أما فروع القانون (الحقوق) وحده ، فإنه يفوز بعدد مواز للعدد الذى نالته جميع فروع الطب والصيدلة والتمريض . . أى قريباً من عشرين بعثة .

• وبقية البعثات . . أى حوالى ٣٥ بعثة . . توزع بين كليات التجارة بأقسامها المختلفة ، وبين بعض المعاهد المتخصصة كمعهد البريد ومعهد القطن ومعهد الفنادق وغير ذلك .

ومن النظرة المحايدة يتضح عدم حياد القائمين على البعثات كما يتضح سيرهم فى التخطيط المدمر لما تبقى من عناصر الصمود فى هذه الأمة .

ولعل أبرز ما توحى به هذه الإحصائية أو هذا التقرير المنشور بتفصيلاته كلها فى جريدة الأهرام المصرية الصادرة بتاريخ ٨-٦-١٩٧٣ .

لعل أبرز موحياته أن هذا التخطيط يسير فى واد واحتياجات مصر والعالم العربى تسير فى واد آخر .

.. إن مصر والعالم العربى لم يصبهما ما أصابهما إلا لأنهما دائماً يسيران فى واد وحقائق التقدم وأبجديات الرقى والتعقل تسير فى واد آخر .

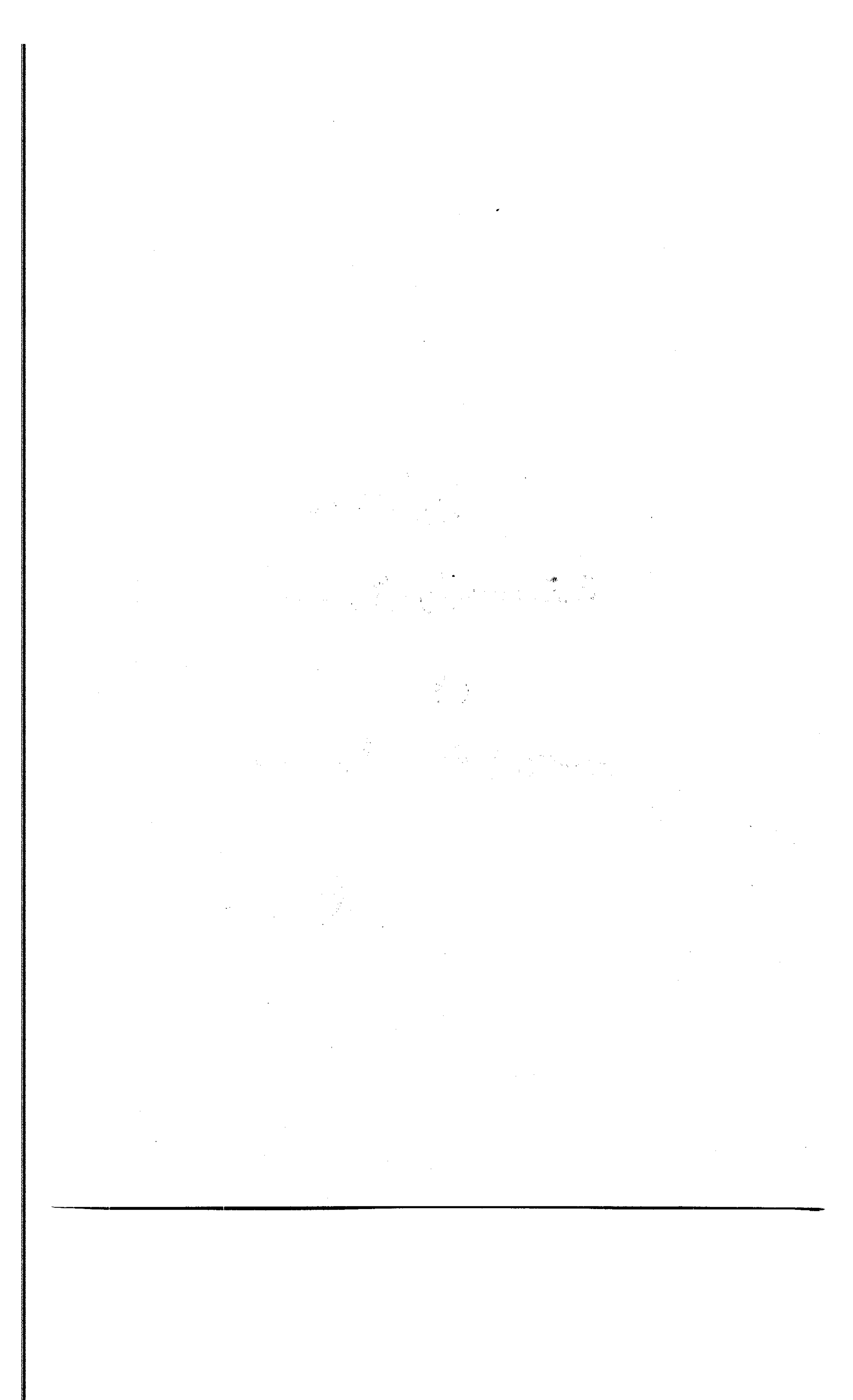
وصدق القائل : أرنى مناهج أمة أخبرك : أين هى ، ومن هى ، وكيف هى ؟

الملحمة الرابعة

مصر فى مهب العاصفة

(١)

شخصية مصر تباع فى المزاد



• هل صحيح أن مصر لم تأخذ من العالم العربي بقدر ما أعطت ؟

• وهــل صحيح أن مصر في موقف من يؤدى الواجبات ولا يأخذ الحقوق بالنسبة لأشقائها العرب ؟

• وبالتالى فهل في الإمكان أن تنفصل مصر عن أشقائها العرب لتتحول إلى دولة « حياد » أو تتحول حسب تعبير « توفيق الحكيم » إلى « فندق العالم » .

• وهل بالإمكان – في التصور الفكرى أو العملي – أن نفصل بين ضرورة أمن مصر عن طريق تعاونها مع جاراتها ، وبين أن تبقى مصر عربية ؟

أى إننا يجب أن نتخيل يوماً سيأتى – كما نفهم من كلام لويس عوض – تتحد فيه بعض الدول العربية بجيش مشترك – مع إسرائيل ضد دول عربية أخرى . . لضرورة الأمن . . فالأمن هو مقياس الوجود لهذه المنطقة وليست العروبة . . وليس الإسلام أيضاً . . ! !

• وهل صحيح أن أية صورة من صور الوحدة أمر مستحيل بين الأمة العربية ؟!

وإذا سمحت القيادات العربية فإن أمريكا وروسيا لن تسمحا به وبالتالى فتحقيقه مستحيل ؟

• ويا ترى ما هوية مصر ؟ . . وما رسالتها ؟ وما طريق مستقبلها ؟

الحقيقة أن أصل القضايا التى أثيرت عن « حياد مصر » أو (أسطورة وحدة العرب) أو مجرد (عروبة مصر) . . والتى تولى كبرها (توفيق الحكيم) و (لويس عوض) . . أصل هذه القضايا يرجع إلى نقطة انطلاقة واحدة لم تتغير منذ مطلع القرن التاسع عشر وهذه النقطة هى : هل مصر عربية مسلمة حاضرا ومستقبلا أم (هى بلد بحر أبيض) يجب أن ينتمى إلى (اللاتينية) والفكر الصليبي والروح الصليبية .. ؟!

إن هذا هو أصل القضية وجوهر الصراع . . وهو صراع مستمر يظهر تارة متواريا أثناء فترات قوة مصر ثم يظهر واضحا . . وعنيفا — أثناء فترات ضعفها ؟! لكنه مع ذلك — قد أخذ مسارا واضحا منذ مطلع هذا القرن ، أى منذ جثوم الصليبية الإنجليزية على مصر وسقوط أصالة بعض المصريين أمام الالتحام الحضارى بأوربا وقيام المستعمر بتكوين مدرسة من بعض الحاقدين على الدور الذى قامت به مصر عبر تاريخها المجيد فى خدمة الإسلام والعروبة . . وكان الهدف الوحيد أن تتخلى مصر عن هذا الدور . . منكفئة على نفسها . . تتلقف (الشيكات السياحية) من أى مكان فى العالم ، حتى ولو كان مقابل هذه (الشيكات) شرفها و (دينها) . . بل و (أرضها) !

أجل إن هذا هو أصـــل القضية !

سلوك قــديم :

وما طرحه توفيق الحكيم ، وتلقفه منه لويس عوض . إنما هو سلوك قديم ، وشنشنة معروفة . . وليس هذا هو موقفهما الأول ، بل هو حلقة فى سلسلة مواقفهما . . ولعل جيلنا لم ينس بعد لتوفيق الحكيم أنه القائل أيام هاجمت فرنسا دمشق :

« عاشت حضارة فرنسا . . حتى ولو ذهبت دمشق إلى الجحيم ! » .

ولعل جيلنا لم ينس بعد للويس عوض معركته ضد الإسلام والعروبة التى عرفت بمعركة « الرسالة » والتى لقنه فيها المحقق الأستاذ محمود شاكر —

درسا لعله نسيه ، بعد أن عرف – حينها – قدره من البحث والتحقيق ، حين راح يفترى على أبى العلاء المعرى ، ويجعله تلميذ الأدرة والكنائس ، ويحول تاريخ الثقافة فى الشام إلى ثقافة (هيلينية جديدة) تأثرت بالروح اللاتينية أكثر مما تأثرت بالإسلام والعروبة .

وعلى الدرب نفسه سار كثيرون قبل الحكيم ولويس وبعدهما . . ذهب إلى ذلك طه حسين فى كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) فرأى أن ثقافة مصر هى إلى اللاتينية النصرانية أقرب منها إلى الإسلام ، بل قد صرح بقوله : (إن وحدة الدين ووحدة اللغة لا يصلحان أساسا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول) . . ثم تطورت الظروف بطه حسين بعد ذلك ، فأصبح رئيس مجمع اللغة العربية . . وأصدر كتاباته الإسلامية التى لا تخلو من شوائب !

ثم مشى على الدرب نفسه لفترة وجيزة الدكتور حسين مؤنس الذى قال فى كتابه (مصر ورسالتها) : « إن تاريخ مصر يتأثر بالبحر الأبيض . . وإن حياة مصر لا تستقيم إلا إذا كانت على صلة بالبحر الأبيض » لكن لم يلبث الدكتور حسين مؤنس أن أصدر دراسات عربية وإسلامية تدل بوضوح على انتمائه الإسلامى والعربى !

وليس من قصدنا هنا تتبع مسيرة هذه القضية فى مصر . . بدءاً من الخديوى إسماعيل ومرورا بلطفى السيد وانتهاء بمدرسة لويس عوض وموسى صبرى وكمال الملاخ – وإنما قصدنا – فقط – أن نلمح إلى أن هذه النزعة إنما تظهر منسجمة مع الظروف السيئة التى تتعرض لها الأمة العربية . . ومع الأهداف الاستعمارية العليـــا !

دور المسيحيين :

وهناك حقيقة يكشفها تتبعنا الإحصائى لقادة هذه الحركات وجمهرة المشجعين لها . . هذه الحقيقة هى أن المسيحيين واليهود كانوا أكثر من غذى هذه الحركات واستجاب لتوجيهات الاستعمار بشأنها .

وعن ذلك يتحدث كاتب يسارى قومى غير مهتم بالولاء للإسلام وهو الدكتور محمد عمارة الذى قال فى كتابه عن (العروبة فى العصر الحديث) بعد أن سرد حركات تمزيق البلاد العربية . . . قال :

(لقد وجدت هذه النزعة الغذاء والقوة والتأييد من عديد من المصادر والاتجاهات والأوساط الرجعية المرتبطة مصالحها بمصالح الاستعمار فى أوساط المسيحيين المصريين كانت للأسف تذكى نار هذه النزعة ، وتجد فيها شكلا من أشكال مواصلة العداء والحروب لكل ما هو عربى ، على أساس أن العداء للعروبة يتضمن العداء للإسلام) .

ولهذا فلا نعجب إذا وجدنا أن أعلام كل حركة تمزيقية إنما هم من هؤلاء . . وإن اتخذت هذه الحركة الوطنية أو القومية أو العلمانية ستارا تتخفى وراءه . . فهدفها واحد هو بقاء العالم العربى أشلاء متناثرة لا تصلح للوقوف أمام الأطماع الاستعمارية .

العروبة وليس القومية :

القومية كما يعرف لويس عوض كلمة مستحدثة لم يعرفها العرب الأوائل بمعناها الاصطلاحى الذى عرفته أوربا فى القرن التاسع عشر ، وهو المعنى الذى تعنيه كلمة Nationalism وكان طبيعيا ألا تظهر كلمة القومية بمضمونها الفلسفى الأوربى فى أرض العروبة والإسلام نظراً لطبيعة الإسلام كدين وحضارة وجنسية ، يغنى عن الحاجة إلى ولاء قومى (بالمعنى الأوربى) ويرفض أن تعلو فوق رايته راية .

أما فى العالم النصرانى ، وحيث انفصل الدين عن الدولة ، وانعزل الدين فى الكنيسة بعيداً عن مسيرة المجتمع وتطور العقل ، فقد كان طبيعيا أن تحتاج المسيرة الأوربية إلى (ولاء) تجتمع حوله . . فكانت الوطنية . . ثم كانت القومية . . ثم تعاورت الوطنية والقومية المواقع حسب فترات الضعف والقوة .

هذه القومية إذن قد نشأت كبديل للولاء الدينى نتيجة تطور حضارى أوربى خاص . . وهى نتيجة منسجمة مع طبيعة التصورات الاعتقادية المسيحية ، وقد نجحت فى أن تخدم أوربا الحديثة التى كانت تفتقد رابطة الولاء ، فوجدت فى القومية (ولاء) معقولا تمكنت بفضله من إتمام الوحدة الألمانية على يد (بسمارك) ومن إتمام الوحدة الإيطالية على يد (ماتزينى) ومن منح فرنسا روحا عظيمة على يد (نابليون) الذى كاد ينجح فى إخضاع أوربا لسيطرة القومية الفرنسية .

فهل العروبة التى ندافع عنها مجرد نظير مساو لهذه القوميات التى ظهرت فى منطقة فارغة من (الولاءات) وفقاً لتطور انفصلت فيه الحياة عن الدين ؟

الحق أن هذا هو المفهوم الذى انطلقت منه حركة القومية العربية المعاصرة حتى فى مرحلة (ساطع الحصرى) ، ولهذا كان أعلام هذه الحركة من المسيحيين ، وعلى رأسهم المسيحيون الثلاثة : ناصيف اليازجى (ت ١٨٧١م) وابنه إبراهيم اليازجى (ت ١٩٠٦م) وبطرس البستانى (ت ١٨٨٣ م) . وما يزال يحرس هذا المفهوم للقومية الأب الروحى المعاصر لعراق البعث (ميشيل عفلق) !

ونحن نرفض هذا المفهوم القومى ، ونؤمن بأن القومية لا تصلح بديلا للإسلام ، بل نؤمن بأن الولاء للقومية بهذا المفهوم يتعارض مع التصور الإسلامى الصحيح ، ولا يمكن الجمع بين التصورين . كما أننا نؤمن بأن إسقاط نظرية تولدت عن تطور تاريخى محلى ووضع لاهوتى خاص — على بلاد الإسلام والعروبة — إنما هو مغالطة تاريخية . وإشباع لنزعة عنصرية وسوء فهم متعمد لطبيعة الدين الإسلامى الذى هو دين ودولة وحضارة دون انفصـــام .

ومن هنا كان ترحيب النصارى القوميين بالكتابات التى تحاول إسقاط الفهم المسيحى للدين على الإسلام ، مثل كتاب على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) فقد وجدوا فيه ملجأ للقول بالمساواة بين المسيحية والإسلام . وبالتالى إفساح المجال للقومية وعزل الدين عن الحياة .

ونحن إذ نرفض هذا المفهوم القومى — فإننا — فى الوقت نفسه — نحترم (العروبة) ونعتبرها جزءاً من ديننا . . ورسالتنا . . وإطارا كريماً لشعائر ديننا . . وكتاب ربنا . . وفهمها فهما عميقا ضرورة لإظهار إعجاز هذا القرآن العظيم . . والعرب أيضا أعزاء على الإسلام . . فبهم عز . . وعلى أكتافهم حمل إلى آفاق الأرض باعتباره رسالة عالمية (وليس دينا قوميا كما يفترى الكاهن لويس عوض) .

فبالعرب العظماء . . وبصلاح الدين الكردى العربى . . وبالمماليك المعربين . . وبالأتراك المعربين . . بكل هؤلاء الذين يقرأون القرآن العربى . . وبكل المصلين بالكلمات العربية . . المتجهين إلى قبلة تقع فى بلد عربى .. والذين يحجون كل عام إلى مدينة عربية . . ويؤدون المناسك بلسان عربى (دون أن يحسوا بأى شعور قومى) . . بهؤلاء وبغيرهم الذين أصبحت العروبة عندهم روحا وفكرا وولاء مطلقا وجزءاً من العقيدة . . بهؤلاء نجح العرب فى حطين وعين جالوت ومات المصريون شهداء فى ليبيا . . أيام الغزو الإيطالى . . واستشهد سليمان الحلبى فى مصر أيام الغزو الفرنسى . . ووقف العرب وخلفهم المسلمون جميعاً فى عاشر رمضان ١٣٩٣ هـ .

إن العروبة روح وعاطفة . وتفكير عربى ، وانتماء عربى !

وكلمة (اللسان) فى العربية تعنى العضو الذى يترجم عما فى الفؤاد وإلا فإن (اللسان المجرد) الذى لا يعكس فكراً ولا شعوراً ولا انتماء هو لسان الببغاء . . إن اللسان العربى فى حقيقته يعنى التفكير العربى ، والروح العربية وأسلوب الحياة العربى . . كما يعنى الإيمان بالتراث العربى . . أو بإيجاز شديد (الإيمان بروح الحضارة العربية) التى يعبر عنها اللسان العربى باللغة العربية . .

وهذا وحده هو المقياس لتحديد (هوية) الإنسان العربى ، ومن هنا كانت ضرورة الإسلام لكل عربى ، حتى المسيحى العربى ، لأن الإسلام هو روح هذه الحضارة وهو فكرها وتراثها ورسالتها فى المستقبل .

وقد وصل بعض المسيحيين العرب المخلصين إلى هذه الحقيقة ، فاعتزوا بالإسلام ، ولم يكيدوا له ، أو يتآمروا عليه ، بل جاهروا بحبه والاعتراف بفضله . . ومنهم الدكتور نظمى لوقا . . ومكرم عبيد الذى كان يقول : (أنا مسلم وطنا مسيحى دينا) . . والشاعر السورى المسيحى الكبير (وصفى قرنفلى) الذى كتب مقدمة نثرية لقصيدته فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام . . يقول فيها :

(عقيدتى الشخصية أن محمدا صلى الله عليه وسلم كبقية الرسل ، وكما جاز للمسيحيين أن يجمعوا للمسيح صفتى الألوهية والإنسانية الممتازين فقد يجوز لى أن أرى فى سيد قريش نبيا دينيا ومنقذا قوميا فى آن واحد ، فأنا أحترمه صلى الله عليه وسلم كنبي جاءنا بالهدى والرحمة ، وأنضوى إلى لوائه كمنقذ لهذا الشرق من آثار الفرس والرومان ، وأنا أرى فى الدين الإسلامى قوة للشرق فى جهاده القومى يجب استغلالها ، وإذا لم يكن للقرآن من يد إلا صيانة لغتنا لكفاه ذلك فضيلة تحمد ويداً تشكر ، فاعترافا بفضل محمد والقرآن على العرب والعربية كتبت ما كتبت وأكتب) .

إننا نؤمن بها عروبة إسلامية . . وليست قومية أوربية . . حتى ولو أطلق عليها (قومية عربية) !

لا عروبة بغير القرآن :

حيثما تقرأ أغلبية القرآن الكريم وتفهم اللغة العربية . . فهناك شعب عربى يعيش فى بلد عربى حق ولو حكمه غير عرب وغير مسلمين تحت ضغوط استعمارية .

ودائماً كان القرآن الكريم يمثل اللغة والثقافة المشتركة بين العناصر العربية . . ومن هنا حاول الاستعمار إبعاد العرب عن هذه الراية الثقافية والمنهج الحضارى العالمى الفذ .

وعلى امتداد أربعة عشر قرنا استطاع القرآن أن يخلق تراثا هائلا سيطرت

روحه على العالم كله ردحا من الزمان ، وأعطى الأمة الإسلامية والعربية وقودها الحضارى وفكرها المتميز ، ومنحها وحدة روحية لم تتوافر لأية حضارة من الحضارات .

وسواء كان المسلم بدويا ينتقل حسب المراعى من مكان إلى مكان ، ويعيش – مع أبناء وطنه – كجزر نائية – أو كان هذا المسلم حضريا يعيش فى مدينة أو قرية . . فقد ظل القرآن هو (اللغة المشتركة) و (المنهج الواحد) الذى عليه يلتقون ويعيشون . .

فإذا كانت هناك قوميات قد ظهرت بلا أوطان فى عصور الهجرات الكبرى كتحركات الهكسوس والحيثيين والإغريق والرومان والقوط والواندال والهون والسلافيين والتتار والمغول – فإن المسلمين – أيضا – قد تعرضوا فى تاريخهم لأكثر من مظهر من مظاهر الغربة ، ولأكثر من صورة من صور النكبة والاكتساح والهزيمة ، ولأكثر من صورة من صور الغزو الصليبى والسياسى والفكرى – ولكن – مع ذلك – بقى القرآن هو لغتهم ودستورهم ومعلم مستقبلهم الثابت .

وسواء اتحد العرب بعد عشر سنوات أو بعد خمسين ، فإن القرآن سيبقى لهم كالفكرة الواحدة التى لا تقبل تجزؤاً أو شتاتا ، كما أن العرب ليسوا أول أمة فى التاريخ تتعرض لمثل هذا التشتت . . فالألمـــان . . والإيطاليون – فضلا عن اليهود – قد تعرضوا له . . وأيماً كان لها وقودها الذى أعانها على الصمود والبقاء .

وتدلنا تجربة اليهود – وهى تجربة جديرة بالدراسة العميقة – على أن التوراة هى التى حفظت اليهود بالرغم من التشتت الهائل .

وهذا معنى قول أحد كبارهم : (إن اليهود لم يحفظوا التوراة ، وإنما التوراة هى التى حفظت اليهود) وعن التجربة اليهودية نقتطف من مقال نشرته مجلة لوموند للكاتب (لنكولا بوديه) العبارات التالية الجديرة بالنظر العميق :

« إنه إذا كان الدين فى إسرائيل من الشئون الخاصة لكل فرد ، فإن التوراة ملك مشترك بين جميع المواطنين ، بل هى دستور هذه الدولة اللادينية » !

ويقول بوديه أيضاً :

« لقد جاء فى إعلان استقلال إسرائيل ما يلى : ستقوم دولة إسرائيل على مبادئ الحرية والعدالة والسلم كما يفهمها أنبياء بنى إسرائيل . . إن هذه الدولة ليس لها دستور ولكن دستورها العملى هو التوراة . . ومن حين لآخر تصدر قوانين جزئية حسب الحاجة .. والشيء الذى يلفت النظر فى إسرائيل هو هذا المجهود الجبار لإحياء تراثها . . لإحياء التوراة . . فالمهاجرون المثقفون الذين جاءوا من أوربا والآخرون الذين يجرون جلاليبهم الشرقية . . إذا كانوا مختلفون فى هذه الأشياء فإنما يجمعهم شيء على الأقل . . وهو أنهم يتكلمون العبرية ، ويسكنون فى بلاد تقوم كل حياتها على أساس التوراة » . . فنحن إذ نقول (بالعروبة القرآنية) إنما نقرر حقيقة حضارية وصل إلى استيعابها اليهود . . ونجحوا بها . . وثبتوا بها دعائم وجودهم على أنقاض أمة مبعثرة تتحرك بلا أساس ثابت . . بل تهتز كالبندول يقذفها يمينى إلى اليمين . . ويسوقها يسارى إلى اليسار . . كلاهما يقودها إلى حتفها عن خبث متعمد أو عن اجتهاد خاطئ !

شخصية الأمة :

ويجرنا هذا إلى كلمة عن (شخصية الأمة) . . فهل أية أمة فى التاريخ يمكن أن تعيش وتبقى على أساس تذبذب الشخصية عن طريق التقليد أو التبعية أو تغيير الجلدة لكل فكرة وافدة أو غاز منتصر . . أم أن لأية أمة من الأمم ركائز ثابتة لا تقبل الاهتزاز . . مهما اعتورها من ضعف . . أو انتابتها النكسات . . وبالتالى فهل يمكن أن يغير توفيق الحكيم أو لويس عوض شخصية مصر ، فى ظل ظروف ضعفها ؟!

لقد تعاور على حكم مصر الإغريق والرومان . . وحكمها الفراعنة

بناة الأهرام . . ثم حكمها العرب . . ومن بين هؤلاء جميعاً لا نجد لمصر شخصية ولا دورا حضاريا ذا شأن إلا الدور العربي الإسلامي . . لماذا ؟ لأنه الدور الملائم لشخصية مصر . . المتصل بنفسيتها . . المعبر عن ذاتيتها . . الذى أعطاها الوجود الخصب الثرى . . فحمت فى ظله حضارة البشرية كلها أيام التتار فى « عين جالوت » وحمت العالم الإسلامى كله أيام الصليبيين فى (حطين) . . وصهرت مصر التتار والأكراد والمماليك فحولتهم إلى مسلمين عرب لا يشعرون بأنهم يدافعون عن مصر الفراعنة أو مصر الإسكندر الأكبر وإنما يدافعون عن (مصرهم) هم . . مصر الإسلامية . . مصر العربية . مصر الأزهر (!) لقد أصبحوا جزءاً من مصر . . لأنهم جزء من الحضارة التى تحرسها مصر !

ومن هنا يبدو (لويس عوض) أكثر ما يكون بعداً عن العلمية وأقرب ما يكون إلى الصليبية حين يقرع المصريين ويوبخهم لأنهم — كما يقول — : « يعيشون فى وهم أمجاد ماضية ويتقمصون روح الأسلاف . . فيتحدثون عن حطين ومرج دابق وعين جالوت ويعلمون أبناءهم تاريخ طارق بن زياد وصقر قريش وصلاح الدين » .

— وماذا إذن تكون مصر . . يا لويس ؟

— وإذا ذهبت عين جالوت وحطين من تاريخ مصر . . فماذا يبقى فيه من أمجاد عالمية ؟

— ويا ترى هل تعلم مصر أبناءها تاريخ (بطرس الناسك) و (جان دارك) و (نابليون بونابرت) بدلا من طارق وصلاح الدين ؟

— وهل تتكرم بريطانيا أو المبشرون الذين نعرفهم جيداً . . بالتخلى عن تمجيد (ريتشارد قلب الأسد) و (شارل مارتل) ليمجدوا هم — بدلا منا — عبد الرحمن الغافقى وصلاح الدين ؟!

أم إننا وحدنا الذين يطلب منا مسخ شخصيتنا وبيع حضارة مصر فى مزاد علنى ؟!

— وبيعها لمن ؟ لأعدائها الذين يستعمرون أرضها أو يساعدون مستعمريها بالمال والسلاح ؟

والسؤال الضروري هنا : هل بإمكان مصر بيع حضارتها وشخصيتها في المزاد . . حتى لو أراد ذلك حاكم أو محتل أجنبي ؟

ونترك الرد على هذا السؤال لمفكر القومية الألمانية الكبير « فيختـه » فلعله قادر على إقناع أمثال لويس والحكيم وحسين فوزى . .

يقول فيخته : « إن شخصية أمة من الأمم ليست شيئاً اصطناعيا ثانويا ، بل هي شجرة تضرب بجذورها فى أعماق تلك الأمة ، وإن عظمة أمة من الأمم ليست فى المظاهر العابرة . . كما أن عظمة الرجال لا تقاس بالتماثيل التي تقام لهم » .

ويقول (رونس ما هو) المدير العام لليونسكو : « إن الأمة التي لا تؤمن بنفسها لا وجود لها ، فإذا لم يكن لشعبها طابع خاص يعبر به عن نفسه وخصائصه ومميزاته وطرقه الخاصة به فى الحياة فلا وجود له . . واستقلاله استقلال سطحى » .

وأمامنا كل الحضارات . . سواء منها الحضارات التي اندثرت أو التي بقيت . . ثمة ميزان واحد للجميع . . إما أن تبقى شخصية الأمة بعيداً عن الضغوط والمزايدات . . وإما أن تسقط الأمة وتذوب فوراً فى غيرها . . تماماً كما يذوب الملح فى المـاء ! !

وقد أحسنت الدكتورة بنت الشاطئ حين ذكرت فى جريدة الأهرام أن « شخصية مصر ليست من الأعراض الطارئة التي يجوز عليها التغيير والتبديل فيصح أن تكون موضع نظر . . إنها ليست قضية أدبية أو اقتصادية » كما أحسنت بنت الشاطئ أيضاً حين لمست لب القضية فقالت :

« إنى أخشى أن تكون هذه الدعوة إلى حياد مصر ذريعة لمن يكرهون شخصيتها الإسلامية ، ويريدون أن يستبدلوا بهذه الإسلامية السلفية علمانية عصرية تحررها من أغلال الانتماء إلى العالم الإسلامى .. ! ! » .

وما تخشاه بنت الشاطئ . . هو جوهر القضية التى لا يريد أن يذكرها أحد . . حتى لا يتهم بالتعصب الإسلامى . . والخروج على المنهجية العلمية ! ! (وتمزيق الوحدة الوطنية) .

هل وحـــدة العرب أسطورة ؟!

يرى لويس عوض أن وحدة العرب أسطورة سياسية . . ويرى لويس أن القوتين الكبيرتين لن تسمحا بقيام هذه الوحدة . . وبالتالى فهى أمل ميئوس منه !

والحقيقة أن وحدة العرب ليست أسطورة . . لأن الأسطورة فى أبسط دلالاتها اللغوية أمر خرافى لم يتحقق قط . . ولا يمكن – عقليا – أن يتحقق . لكن تاريخ العرب ملىء بصور من الضعف والتفكك . . الذى أعقبته وحدة أيضا . . كانت تبدو فى أنظار البعض وكأنها حلم بعيد . . وبهذه الوحدة – بعد التفكك – انتصر المسلمون العرب فى حطين وفى عين جالوت وقبلهما وبعدهما .

وليس العرب بدعا فى هذا . . فأوربا تكاد تتحد فى السوق الأوربية المشتركة على الرغم من تعدد اللغات والعقائد والأهداف . . والصراعات المميتة السابقة بينها .

وأمريكا مكونة من ولايات تجمعها اتجاهات وعقائد متنافرة .

وقل فى روسيا والصين الشىء نفسه .

ولم تتوحد ألمـــانيا بسمارك إلا بعد حروب طاحنة بين إمارات ألمـانيا المتعددة . .

وإيطاليا – كألمـانيا – لم تلتئم مدنها إلا بعد حروب ودماء طاحنة ؟!

وآخر تجربة مرئية رأى العين . . هى نجاح الملك عبد العزيز آل سعود – رحمه الله رحمة واسعة – فى توحيد الجزيرة العربية التى تعدل مساحتها

مساحة أوربا . . على عين بريطانيا وسمعها . . ومع قوة روسيا وأمريكا وفرنسا . . وفى ذلك الحين أيضا .

ونحن – من ثقافتنا التاريخية – نستطيع القول : إن الضعف خور وفساد فى أفكار العرب أنفسهم . . والقوى الخارجية إنما تستثمر هذا الضعف . . وعلى الرغم من قوتها فإنها لا تملك فرض وضع التشتت على العرب . . إذا ما أرادوا الوحدة واتجهوا الوجهة الصحيحة وتخلصوا من عوامل الضعف ، وأولها معاول الهدم . . وتلامذة الفكر الغربى الداعى إلى الانقسام والتمزق .

وأخيراً . . مصر والعرب :

ليس لنا أن نغفل حقيقة أساسية فى حوارنا هذا . . فإن هذا الحوار ما كان له يكون لولا « المبادرة » التى زار فيها الرئيس أنور السادات القدس ، ولولا ما أعقبها من تفكك فى الجبهة العربية ، وقطع علاقات مصر بسوريا والعراق والجزائر وليبيا .

فى هذا المناخ أظهر كل صاحب نعرة شعوبية نعرته ، وأظهر كل إقليمى أو غربى . فكرته . وبدت مصر وكأنها « فى مزاد » كل يحاول أن يشتريها ، ليبيعها فى سوقه .

ونسى هؤلاء وأولئك أن اختلافات الحكام شىء وشخصيات الشعوب وأسسها الحضارية شىء آخر .

ومصر . . عربية الهواء والماء والأرض والفكر والمسجد والمصنع شاءت أم أبت .

وتخليها عن عروبتها . . ليس قرارا سياسيا مناوئا تستطيع أن تتخذه كما يقطع الحكام العلاقات السياسية أو التجارية . فهذا لون من الفكر السطحى المضحك ! !

إن إسلامية مصر وعروبتها إنما هما قدرها الذى ستتحدد على أساسهما شخصيتها ودورها الحضارى . . ورسالتها فى الحاضر والمستقبل .

وإذا كان بعض القادة العرب فى الفكر والسياسة لم يصلوا بعد إلى درجة من النضج تسمح باستيعاب الحقائق الأساسية لشعوبهم العربية والإسلامية ، ويظنون أن كل شىء فى حياة شعوبهم قابل للمزايدات السياسية فإن ذلك شىء ، وإن كان خطيرا — إلا أنه يمس هؤلاء القادة — ولا يمس جوهر القضية .

والكلام هنا عن مصر وعن سائر البلاد العربية والإسلامية ؟!

* * *

والذين يتحدثون الآن عن « فضل مصر » و « تضحية مصر » و « عدم تضحية العرب مع مصر » و « رخاء العرب وفقر مصر » . . الذين يتحدثون بمثل هذه العبارات من منطلق عنصرى تمزيقى لم يسألوا أنفسهم عن موقف واحد أخير ومعروف للجميع . . إنه موقف آخر معركة خاضتها مصر وانتصرت فيها . . وهل وقفت فيها وحدها ؟ أم أن معركتها وانتصارها وقف وراءه — بعد الله — السادات وفيصل رحمه الله ، كما اعترف السادات نفسه ؟! فضلا عن بقية الأشقاء العرب ؟!

أليس من اللائق أن نتروى فى علاج الأمور بدل هذا الأسلوب الانفعالى الارتجالى فى معالجة قضايا مصيرية ؟!

* * *

وسواء أعطى العرب مصر عونهم المادى والمعنوى أو قصروا فى ذلك ، فإن مصر ملزمة بأن تقود الشعوب العربية إلى شاطئ النجاة ، وأن تبصرهم بالمصير المشترك الذى ينتظرها وينتظرهم إذا ما استمروا فى مسيرتهم المهلكة .

إن مصر لا تدافع عنهم بالدرجة الأولى . . وإنما تدافع — بالدرجة الأولى — عن حماها وحوضها .

(٢)
الروتاري الصهيوني ينتشر في مصر

فى ٢٠ ديسمبر ١٩٥٠ م – صدر مرسوم بابوى من المجلس الأعلى المقدس للفاتيكان يدين « أندية الروتارى » يحرم على رجال الدين والشعب المسيحى دخول هذه الأندية . . ونص هذا المرسوم هو :

« دفاعاً عن العقيدة والفضيلة تقرر عدم السماح لرجال الدين بالانتساب إلى الهيئة المسماة بنادى الروتارى وعدم الاشتراك فى اجتماعاتها ، وأن غير رجال الدين يطالبون بمراعاة المرسوم رقم (٦٨٤) الخاص بالجمعيات السرية والمشتبه فيها » .

وقد آثرنا أن نصدر مقالنا بشهادة الفاتيكان – باعتباره دولة رسمية معنية بمراقبة هذه الحركات حتى لا يظن الذين يعنيهم الأمر أننا ننطلق من مجرد الحماس ، أو أننا نعتمد على اجتهادات شخصية . . ويبقى بعد ذلك أن نذكر بقية شهادات رجال الفكر المحايدين . وبقية الحقائق التى تكتشف دور أندية الروتارى فى خدمة « الحكومات الخفية » .

درجة الروتارى فى الحكومة الصهيونية :

معروف أن الاسم العالمى والشعبى الذى يقف وراءه اليهود لتحقيق سيطرتهم على العالم هو اسم « الماسونية » وفى كل بلاد العالم بما فيها البلاد الإسلامية والعربية أسس الصهاينة «أندية للماسونية» تتخفى وراء العمل الاجتماعى الإنسانى . . لكن بعض هذه الدول ومنها مصر قد أدركت حقيقة هذه الأندية ، فأمرت بإغلاقها « ومن العجيب – كما يقول أستاذنا الدكتور

أحمد شلبي في كتابه – اليهودية – أن هذه الماسونية ظلت سرا على البلدان العربية حتى بعد قيام إسرائيل ، ولم يصدر قرار بإلغاء المحافل الماسونية في مصر إلا في ابريل سنة ١٩٦٤ بعد تحريم البابا – في الفاتيكان – لها بأكثر من عشر سنوات ، ولا تزال المحافل الماسونية تباشر نشاطها في بعض البلدان العربية » .

وحيث تضعف أنشطة الماسونية ، بسبب مراقبة السلطات لها ، أو حيث تنجح السلطات في فهم حقيقتها فتغلق محافلها ، تقوم بدلا منها ، وبصورة تتخذ من « العلنية » ستاراً – أندية الروتاري ، لتؤدي الدور نفسه ، لكن بصورة تتلاءم مع الأوضاع والظروف الجديدة .

ولتوضيح ذلك فإن الماسونية كما يقول ماسوني مصري سابق وصل إلى درجة (٣٣) وهي درجة الأستاذ الأعظم ، وهو الدكتور أحمد غلوش رئيس جمعية منع المسكرات الذي تاب الله عليه بعد أن كشف حقيقة الماسونية :

إن الماسونية تنقسم إلى ثلاث فرق :

١ – الفرقة الأولى هي الماسونية الرمزية العامة ذات الدرجات الثلاث ، وسميت رمزية لكثرة رموزها في طقوسها الوضعية المشتقة من التوراة ! ! ودرجات هذه الفرق الثلاث هي درجة المبتدئ ويسمى العضو فيها « الأخ » ثم درجة « الشغال » ثم درجة الأستاذ . . ثم يترقى صاحب درجة الأستاذ إلى درجة الاحترام . . ثم المحترم الأعظم . . . . الخ .

٢ – الفرقة الثانية هي الماسونية الملوكية أو فرقة العقد الملوكي . . وهي أول مراتب العمل الصهيوني المنظم والمباشر والملتزم بأوامر الفرقة الثالثة ، وقد كانت هذه الفرقة مقصورة على اليهود ، ثم رئي من باب التعمية والسياسة قبول غير اليهود ممن يترقون ويوثق بهم من الدرجة الأولى .

٣ – أما الفرقة الثالثة والأخيرة فهي الماسونية الكونية التي تحكم

شئون العالم ولا يعرف مقرها أحد ولا يعرف رئيسها أحد ، اللهم إلا أعضاؤها الذين هم من اليهود الخلص ، ولهذه الماسونية محفل واحد ، هو الذى يدير النفوذ الصهيونى ومصالح آل صهيون بوسائل إعلامية واقتصادية ، مما يسميه الناس « التغلغل الصهيونى فى أجهزة الإعلام فى العالم ، والتغلغل الاقتصادى ، ونشر الفساد الأخلاقى وإعلان الحرب على الأديان » مما من شأنه التمهيد لسيطرة اليهود — وحدهم — على العالم !!

المهام المحددة للروتارى :

على أننا نستطيع إيجاز المهام المحددة لأندية الروتارى فى هذه النقاط :

أولا : الكشف عن الرأى العام واستخلاص النتائج الممكنة ، من خلال الكلام العادى والمناقشات التى تبدو بريئة خلال اجتماعات الروتارى المتكررة التى ينفق عليها بسخاء من مصادر مجهولة التمويل .

ثانياً : جذب مجموعة من المشاهير فى الفن والأدب والصحافة ممن يمكن أن ينخدعوا بالشعارات البراقة ، والذين يحبون الجلسات الفخمة والاجتماعات ذات المستوى العالى . . وهؤلاء يخدمون الروتارى من ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : هو معلوماتهم التى يمكن أن يتكلموا بها دون دراية ، أو لأنها — فى رأيهم — بعيدة عن السياسة ، بينما تستطيع أجهزة الرصد الصهيونى تحليلها واستنباط بعض النتائج المفيدة منها ، سواء كانت الفائدة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية .

والوجه الثانى : ترويج بعض الاتجاهات والأفكار الهدامة — البعيدة عن الولاء للدين أو الوطن — من خلال هؤلاء باعتبارهم قادة الفكر والمسيطرين على أجهزة الإعلام والتوجيه .

والوجه الثالث : هو أن وجود هؤلاء قد يخدع السذج والبسطاء بالانضمام إلى أندية الروتارى . . حتى يجدوا أنفسهم يجلسون ويتحاورون مع الكبار

المرموقين وبالتالى فهم « دعاية إعلامية » من حيث لا يشعرون لهذه الأندية المشبوهة ! !

ثالثاً : نشر أفكار معينة تمهد لتحقيق السيطرة الفكرية لليهود على العالم ، ومن هذه الأفكار : تنحية الدين عن التأثير فى المجتمع ، باسم « الفصل بين الدين والدولة » لكى تبقى اليهودية وحدها فى الميدان .

وإذا كان معلوما لكل ذى عقل أن اليهودى الشيوعى أو الأمريكى أو حتى الذين تظاهروا منهم بدخول المسيحية إنما ولاؤهم هو لليهودية والحركة الصهيونية أولا — فإن من البديهى أن نعلم أن جماعة الروتارى التى تضم المسلم والمسيحى واليهودى إنما هى خادمة للصهيونية .

والروتاريون منتشرون فى العالم أجمع وهم متساندون فيما بينهم أكثر من تساندهم مع إخوانهم فى الدين أو الوطن فضلا عن الولاء للقوميات .

وهذه الأفكار — وغيرها كثير — هى الأفكار التى يناط بالدرجة الأولى « الفرقة الماسونية الرمزية » تعميمها وإشاعتها فى الرأى العام العالمى ، وهذه الدرجة هى التى يمثلها ويضطلع بأعبائها « الروتاريون » المنتشرون فى العالم كله .

وزير داخلية سابق يدين الروتارى :

وقد قام عبد العظيم فهمى وزير الداخلية الأسبق بإغلاق محافل الروتارى ، لكنهم استطاعوا العودة إلى العمل بعد أن ترك منصبه ، وقد ذهب الرجل لأنديتهم بعد أن أحيل إلى التقاعد . . وجاهرهم بحقيقة ما وصل إليه من أمرهم . وتأكد عن كثب من آرائه فيهم (راجع مقالة عن الروتارى بمجلة الاعتصام للدكتور أحمد شلبى) .

الروتاريون ينشرون الأفكار الإسرائيلية :

فى أوائل سنة ١٩٧٤م ، التقى المؤتمر القطرى لنوادى الروتارى فى مؤتمر

عالمي عقدوه فى جزيرة صقلية ، ومثل فيه الروتاريون لدول حوض البحر الأبيض المتوسط ، وكان الموضوع الرئيسي الذى التقى عليه الروتاريون القادمون من الدول العربية وإسرائيل هو : « بحث مشكلة السلام وشروطه بين شعوب البحر الأبيض المتوسط » .

وقد تحدث إلى الصحفيين فى إسرائيل عن هذا المؤتمر العميد القاضي « بار زئيب » ممثل إسرائيل . . فقال عن لقاءاته مع إخوته الروتاريين العرب فى هذا المؤتمر وفى المؤتمرات السابقة :

« فى بداية هذه اللقاءات تكون العلاقات رسمية وفيما بعد تتحول هذه العلاقات إلى علاقات ودية ، وفى نهاية المؤتمر لا نكتفى بالتصافح فقط بل نتجاوز ذلك إلى التعانق وتبادل القبل » .

ويقول القاضي الإسرائيلي عن كلمته فى المؤتمر :

« لقد قوبلت كلمتى بالترحاب حتى من الروتاريين العرب » .

وإن المرء ليندهش لهذه المؤتمرات العالمية التى تقام فى أكبر عواصم العالم ، وتنفق عليها أموال طائلة . . وحسبنا أن نعلم أنه فى ابريل ١٩٧٤ كان الروتاريون قد عقدوا مؤتمرهم الخامس والستين فى (مينابوليس) بالولايات المتحدة الأمريكية ، وقد قدر عدد الحاضرين لهذا المؤتمر بأكثر من عشرة آلاف عضو . . وهم لا يقيمون إلا فى أفخم الفنادق ولا يستضيفون إلا على موائد خيالية تشبه موائد القياصرة والأباطرة . .

أنيس منصور يكشف الروتاري :

فى أخبار ٢٠-٥-١٩٧٣م كتب أنيس منصور بعد أن ظل عشر سنوات يدور فى فلك أندية الروتاري — كتب بعد هذه السنوات يقول :

« اشتركت على سبيل العلم بالشيء فى إحدى جماعات الروتاري منذ أكثر من عشر سنوات ، وكان اشتراكي نتيجة لضغط شديد من الأصدقاء .

وذهبت واشتركت ، وفى اليوم الأول كان حفل غداء ، والغداء هو أهم حدث أسبوعى فى كل جمعيات الروتارى !! . . وفى أثناء الغداء أو بعده كان يقال لنا : جاءنا اليوم مستر كوكو ماكوكو من اليابان ، وهو عضو الروتارى المركزى فى طوكيو ، ويحمل اليكم تحيات السيد أكوماكو الرئيس الفخرى . . ويتعالى التصفيق ، ثم يتبادل الزائر اليابانى ورئيس الروتارى المصرى الإعلام (!!) ومع التصفيق يجلس الزائر لنسمع عن زائر آخر جاء من الهند ويحمل تحيات الهنود . وزائر ثالث من أمريكا . . وهكذا غداء وتصفيق وإعلام ولا شىء بعد هذا . . » .

ويقول أنيس منصور : .

« ومن الأخبار المضحكة التى تنشرها الصحف والمجلات ظهور عدد كبير من الجمعيات الروتارية النسائية تجتمع وتنفض لماذا ؟ لا أحد يعرف الإجابة ، وأهم نواحى نشاطها الغداء أو العشاء وأن تتخذ قرارها فى كل اجتماع أن يكون الغداء القادم فى المكان الفلانى » . . ثم ينتهى أنيس منصور إلى التساؤل :

« إن الناس يتساءلون من هم الروتاريون ؟ ما دورهم ؟ ما رسالتهم ؟ ما سر حرصهم على إضاعة الوقت وإيهام الناس بأنهم يستثمرون الوقت لصالح الآخرين ؟ » .

ثم يجيب أنيس منصور :

« أنا حقيقة لا أدرى لها فائدة ، ولم أسمع من أحد أن لها فائدة » .

لكننا نقول للأستاذ أنيس منصور : إن فوائدها للصهيونية العالمية معروفة . . وحسبها أن تحلل اتجاهات الرأى العام وتعرف بواطن الأمور السياسية والاجتماعية من خلال الرجال أو النساء . . وما هذه المآدب الفخمة إلا الثمن والستار — للأغراض العليا للماسونية الصهيونية !

الروتاريون فى المعـــادى :

تخرج فى المعادى جريدة أسبوعية وهى لسان حال الروتارى يقوم على أمرها مكفوف شبه أمى لا يعرف أحد من يساعدونه ، كما لا تعرف المصادر التى تستغله وتموله لإخراج هذه الجريدة .

ولعله من حسن الحظ أن يكون من سكان المعادى أيضا الأستاذ الدكتور أحمد شلبى ، الذى كشف حقيقة الروتاريين فى كتابه عن «اليهودية» كما كشفها الأستاذ المجاهد عبد الله التل — والمهم أنه عندما أصدر الدكتور أحمد شلبى كتابه ذاك ، اتصل به الروتاريون بين وعد ووعيد لتخفيف اتجاهه نحوهم ، فلم ينالوا شيئاً ! . .

لكنهم — كما يحكى الدكتور — قد أوعزوا بعد كتابته وكتابة الأستاذ أنيس منصور — إلى كبير من كبرائهم فى الصحافة ، فكتب يمدح « الروتاريين » فى مجلة الإذاعة المصرية عدد ١٨-٣-١٩٧٣ . . وقد خذله الله فيما كتب ، فكشف — من حيث لا يشعر — عن حقيقة الروتاريين كفرع ماسونى ، إذ أنه تكلم عن الروتاريين فصورهم وكأنهم (ماسون) مائة فى المائة ، ومن له أقل فكرة عن أساليب الماسون وتكوينهم يحس أنهم والروتاريين سواء . .

الماسون يريدون استغلال الدولة :

وقد عمد الماسون إلى محاولة خداع الدولة فى مصر ، والتظاهر بمظهر العمل المشروع ، فجاء كبير من كبرائهم وقابل رئيس الوزراء (ممدوح سالم) فى مكتبه ، وبرزت صورة اللقاء المشترك فى الصحف . . ثم عمدوا — فى جو مبادرة السلام — إلى عقد مؤتمر لهم أخذوا يعلنون عنه بكل السبل . . ويجرون إليه الشخصيات الرسمية بغية تضليل الرأى العام عن حقيقتهم .

فقد جاء فى جريدة الأهرام بتاريخ ٣١-٣-٧٨ تحت عنوان : مؤتمر الروتارى تحت رعاية الرئيس السادات — ما يلى :

« يبدأ فى الإسكندرية يوم الخميس القادم مؤتمر الروتارى لمنطقة الشرق الأوسط ، الذى يعقد تحت رعاية الرئيس أنور السادات ، ويحضر افتتاح المؤتمر السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء ، ويشترك فيه نحو ٣٠٠ من الروتاريين فى مصر والسودان ولبنان والأردن والبحرين » .

وفى جريدة الأهرام عدد ٦-٤-٧٨ ورد ما يلى تحت عنوان : « رئيس الوزراء فى مؤتمر الروتارى بالإسكندرية » :

« عبد التواب هديب محافظ الإسكندرية يفتتح اليوم مؤتمر الروتارى نيابة عن الرئيس أنور السادات الذى يقام المؤتمر تحت رعايته ، ويشترك فى المؤتمر ممثلون عن نوادى الروتارى بمصر والسودان والبحرين والأردن ولبنان وسوف يحضره ممدوح سالم رئيس الوزراء ومحب استينو وزير السياحة وروبرت مانشستر ممثل رئيس الروتارى الدولى » ! !

وفى ١٤-٤-٧٨ نشرت الأخبار نص برقية شكر من الدكتور جمال الدين مسعود محافظ منطقة الروتاريين ، توجه بها نيابة عن المؤتمر إلى الرئيس أنور السادات لوضعه المؤتمر تحت رعايته . وكانت هذه البرقية بمثابة رد على برقية بعث بها الرئيس السادات إلى مؤتمر الروتارى بالإسكندرية قال فيها : أنه يأمل أن يسود السلام كل العالم وأن تتوجه الجهود فى بلدان العالم إلى توفير الطعام والأمن للشعوب بدلا من المدفع والدبابة ! ! كما أشاد فيها بمبادئ الروتارى ومثله العليا التى تقوم على اعتزاز كل عضو بعمله وهو ما ندعو إليه فى مصر » !

ونحن نهيب بالمسئولين فى الدولة ، وعلى رأسهم الرئيس أنور السادات . أن يفرقوا بين الدعوة إلى سلام قائم على الحق مع حفظ ديننا وأرضنا كاملة الولاء لأوطاننا وأمتنا ، وبين ترك الحبال على الغارب للجمعيات الصهيونية المشبوهة والتى لا عمل لها إلا تخدير شعبنا حضاريا ، وتأهيله لقبول الأفكار الصهيونية التى تعمل بتخطيط عالمى على تجريد الشعوب من خصائصها ومقوماتها ، فضلا عن رصدها لاتجاهات الرأى العام ، وتحليل الآراء ، واستخلاص النتائج ، واختيار العناصر التى تصلح لخدمة الصهيونية إن عاجلا وإن آجلا .

الملحمة الخامسة

المؤتمرات الإسلامية ومأزق الاستهلاك الإعلامي
وطريق جديد

طريق جديد للمؤتمرات الإسلامية

تمهيـــد :

لعل أخطر ما يواجه أمة من الأمم أو حضارة من الحضارات فى مرحلة النشأة والتكوين أو « الولادة الجديدة » التى تسمى « بالنهضة Renaissance »

– هو التحديد الواضح السليم لتلك النقطة التى تبدأ منها مسيرتها . .

فالبداية الصحيحة لطريق التطور والتحضر تمثل أكبر عبء يجب أن يضطلع به هؤلاء الذين يتصدرون لقيادة الأمة والانتقال بها من السكون إلى الحركة . . ومن سهولة التبعية إلى القدرة على تحمل المسئولية . . ومن الفوضى والتخبط إلى النظام والتخطيط الواعى الشامل .

وليس تحديد نقطة الولادة الجديدة لأمة من الأمم بالأمر السهل الذى تصلح معه تلك الكلمات الشاعرية أو الارتجالية أو الخطابية الحماسية . . فإن قضايا التاريخ لا تخضع لهذا كله . . بل هى خاضعة لموازين وشروط دقيقة كل الدقة وخطيرة كل الخطورة .

وبدون أن نعقد المصطلحات التى نستعملها والمضامين التى يتطلب الأمر تقديمها ، فإننا نضع هذه الشروط كأساسيات أبجدية تحتم الوعى بها عند البحث فى نقطة البداية لأمة من الأمم :

(ا) الوعى الكامل بسنن الله الكونية الثابتة .

(ب) استيعاب روح العصر الذى تبدأ الأمة منه المسيرة وتحديد الموقف الملائم من قضايا العصر .

(ج) الوعى بالتكوين النفسى والتاريخى والفكرى للأمة ، أو ما يسمى بمكان الأمة والمركز الحضارى الذى يضعها تاريخها وتراثها فيه . .

(د) وفوق ذلك وقبله لابد من الوعى بتلك « العقيدة الدافعة » التى يمكنها أن تربط بين العناصر الثلاثة السابقة . . ويمكنها فى الوقت نفسه أن تضمن أكبر ولاء جماهيرى يقدم أقصى ما يمكنه من عطاء ، سواء فى جانب الالتزام بالمبادىء ، أو فى العطاء المادى والثقافى الذى يعتبر انعكاسا للجانب العقدى والأخلاقى .

* * *

إننى موقن بأن هذه المقدمة ضرورية عند الحديث عن أية قضية من قضايا التطور .

وهى ضرورة تنسحب على كل مظهر من مظاهر العلاج لأزمة التطور الحضارى فى الوطن العربى أو الأمة الإسلامية . .

وبدون الوعى الموضوعى بمضمون هذه المقدمة — فإن ولوج باب الحوار سيبدو عملا مبتور الجذور . . عفوى البداية . . جدلى الوسيلة والنهاية . . . لا يصل إلى معالم واضحة منسجمة سليمة .

وانطلاقا من التصور الواعى بالحقائق السالفة الذكر ، أتناول — فى علمية محايدة — ظاهرة المؤتمرات الإسلامية . . تلك التى تحتل جزءاً هاما من نشاط وجهود المتصدرين لتحضير الأمة الإسلامية . . وتحريك مسيرتها فى الاتجاه المنسجم مع شروط الحضارة ومعطيات التاريخ .

وفى البداية أطرح هذين السؤالين :

- ما موقع المؤتمرات الإسلامية فى قضية إنهاض الأمة ؟ وما أسباب قصورها بالتـــالى ؟
- وما الطريق — فى ظل الواقع الإسلامى — لكى تؤدى هذه المؤتمرات دوراً إيجابياً ؟

الموقع التأثيري للمؤتمرات الإسلامية وأسباب قصورها :

ونبدأ بالإجابة على السؤال الأول – من وجهة نظرنا – بإجراء مقارنة سريعة بين هذه المؤتمرات الإسلامية وبين المؤتمرات التى قام بها – ويقوم بها – اليهود منذ قرروا – فى ظل التخوم التى تفصل بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر للهجرة – أن ينشئوا لهم وطنا فى فلسطين . . .

لقد كان هناك هدف واضح محدد . . . يخضع « لبروتوكلات حكماء صهيون » ويسعى إلى تحقيق حلم بنى إسرائيل فى احتلال وطن له قداسة دينية معينة عندهم وله امتداد – من وجهة نظرهم – فى تاريخهم وأعماقهم ، وهو – فى النهاية – يحقق كل أهدافهم المنسابة فى الماضى والممتدة فى الحاضر والمستقبل . . .

ولكى يحقق اليهود هذا الحلم فقد عقدوا سلسلة من المؤتمرات على مستويات مختلفة .

وانطلاقا منها نجحوا فى تحقيق كل أغراضهم بدءاً من إنشاء الجامعة العبرية وانتهاء بما وصلوا إليه من سيطرة على فلسطين ، وعلى أجزاء أخرى من الوطن العربى ، فضلا عما يحلمون به على المدى البعيد ! !

ونحن لن نتحدث عن مؤتمر بال المنعقد فى سويسرا سنة ١٩٨٩ ، فليس هذا المؤتمر الذى اشتهر أمره إلا حلقة من سلسلة طويلة من المؤتمرات الصهيونية ! !

لقد عقد المؤتمر الصهيونى العالمى الأول بعد أن نشر (تيودور هرتزل) كتابه المعروف – الدولة اليهودية – فى برلين ١٨٩٦ م . . .

ومنذ ذلك الحين والمؤتمرات الصهيونية تتوالى مرة أو مرتين فى العام . . حتى بلغ عددها فى سنة ١٩٣٩ (سنة قيام الحرب العالمية الثانية) واحداً وعشرين مؤتمرا . . لم تنقطع خلالها المؤتمرات إلا فى سنوات الحروب . . وحين

توجد ظروف « استراتيجية » توجب هذا الانقطاع ، مع الأخذ فى الاعتبار أن هذا العدد من المؤتمرات كان يسير بصورة رتيبة منظمة ، وهو غير تلك المؤتمرات التى كانت تعرف بالمؤتمرات الصهيونية العالمية التى كانت كثيراً ما تتخلل هذه المؤتمرات المنتظمة لتنظر فى أمر مصيرى تفرضه الأوضاع التى تؤثر على مسار الحركة الصهيونية وآمالها فى الاستيلاء على فلسطين !!

والجدير بالتأمل أن هذه المؤتمرات كانت تعقد فى ظل اعتبارات محددة :

- فهناك الهدف الواضح المحدد (حتى وإن كان هناك اختلاف على الوسائل) .
- وهناك الإصرار — بالمال والنفس — على تنفيذ هذا الهدف .
- وهناك مشكلات محددة عاجلة تتطلب حلولا قريبة عاجلة لا تنفصل عن الهدف البعيد .
- وهناك وعى بتقلب الظروف العالمية واستغلال لهذا التقلب .
- وهناك حشد لكل الإمكانات ، وتخطيط منظم لاستغلالها .
- وهناك تقويم للمؤتمرات الماضية . . ووصل لها بالمؤتمرات اللاحقة .

° ° °

إنه ليخيل إلى أن مدلول مصطلح « مؤتمر » يتطور ، تبعاً لتطور مستوى إرادة الأمة ، ووعيها الحضارى . . فى ظل الإرادة الخامدة المبعثرة المشتتة ، تصبح كلمة « مؤتمر » . . مجرد مظهر متهافت . . . قوى الدلالة على المستوى الخامل المنهار للأمة . . أما إذا كانت الإرادة أكثر قوة وإيجابية فإن المؤتمرات قد تسهم فى رفعها إلى المستوى المطلوب .

وإن الفرق بين المؤتمرات التى تعقدها الأمم القوية والمؤتمرات التى تعقدها الأمم النامية أو المتخلفة لينبع من اختلاف هذه الوضعية !!!!

لقد عقدت على امتداد الساحة الإسلامية خلال القرن الرابع عشر للهجرة مؤتمرات تربو عدة مرات على تلك المؤتمرات التى عقدها اليهود خلال الفترة نفسها .

لكن النتيجة كانت مختلفة تماماً كما هو معلوم ، بحيث لا يصبح تجنيا كبيراً الحكم بأن موقع هذه المؤتمرات فى قضية إنهاض الأمة موقع متأخر جداً.

— فما الأسباب الحقيقية لهذا يا ترى ؟

— إن أبرز الأسباب — بالطبع — هى تلك التى ذكرناها حول ضعف الإرادة والوعى . . . وحول غموض الأهداف وافتقاد التنظيم والتخطيط البعيد المدى وفهم الأخطاء المحيطة والتقلبات العالمية . . .

لكن يبقى — مع ذلك كله — أن هناك أسبابا أخرى أكثر مباشرة وتأثيراً . . .

* فمن هذه الأسباب أن هذه المؤتمرات تخضع فى توجهها الأعلى للدولة الداعية ! ! !

* بل من هذه الأسباب أن هذه المؤتمرات تخضع فى تمويلها لهذه الدولة أو تلك (يلاحظ هنا الأهمية الكبرى للمؤتمر الإسلامى الحر . . مؤتمر الحج) .

* ومن هذه الأسباب أن هذه المؤتمرات فى أغلبها مؤتمرات جزئية غير مرتبطة بخطة كلية . . . فهذا مؤتمر للسيرة . . وذلك للفقه . . . وثالث للاقتصاد . . . ورابع للمسجد . . وخامس للتقارب المسيحى الإسلامى . . وسادس بلا هوية واضحة ولا جدول أعمال واضح وإنما أقيم لأمر ما . . وليقال فيه ما تجود به القرائح . . وهلم جرا .

* ومن أسباب قصور المؤتمرات أيضاً انفكاك الصلة بين بعضها البعض وعدم اهتمامها بالتوصيات السابقة للمؤتمرات الإسلامية ، ولا سيما المشابهة .

* ومن الأسباب كذلك أن هذه المؤتمرات غير ملزمة من ناحية قراراتها

وتوصياتها لا للحكومات ولا للمؤسسات ذات الشأن . . . وهذا – للأسف الشديد – عكس الأسلوب المتبع فى مؤتمرات أعدائنا . .

وإنى لأذكر – على سبيل المقابلة – فقرة واحدة صدرت عن المؤتمر الدولى السادس للحزب الشيوعى المنعقد فى عام ١٩٢٨ م حول الموقف الشيوعى من الدين . . محددة أن « الحرب على الدين – أفيون الشعوب – ينبغى أن تشغل مكاناً هاما بين أعمال الثورة الثقافية . . . ويلزم أن تستمر هذه الحرب بإصرار وبطريقة جديدة منظمة » . .

هذه الفقرة حركت جيوشاً من عملاء الثورة الثقافية لاستعمال أبشع الوسائل لتحطيم الدين والمتدينين . . حتى بلغت فى ذلك غايتها . . .

– فهل ثمة قرار خرج عن مؤتمر إسلامى – على أى مستوى – حرك الجماهير المؤمنة على هذا النحو ؟!!

* ومن أسباب القصور أيضاً جنوح هذه المؤتمرات إلى لون من الإسراف الإنشائى البغيض ، مما يجعل توصياتها مجرد أحلام ومثاليات لا ترتبط بالواقع . . . وحسبنا أن نعلم أن مؤتمراً أخيراً قد انبثقت عنه توصيات تقترب من الثمانين ! !

* ومن أهم أسباب عجز هذه المؤتمرات عن تحقيق الفعالية المطلوبة – هو بناؤها الداخلى نفسه . . . أعضاؤها . . .

فالبنية الداخلية للمؤتمرات الإسلامية الفكرية تتكون غالباً من أعضاء تنفيذيين ، قلما يصلون إلى درجة القدرة على فرض آرائهم . . بل كثيراً ما تتكون هذه البنية من أعضاء تختلف تصوراتهم للإسلام بمقدار الاختلاف « الأيديلوجى » والسياسى بين نظم أوطانهم . .

وحتى مع افتراض وحدة التصور فإن إمكانية تطبيقهم لما يرون على مستوى مجتمعاتهم المغزوة فكرياً – أمر فيه نظر .

— لقد نظرت إلى قائمة المدعوين لمؤتمر ما . . فوجدتها من الكثرة والتباين بحيث أدركت أن من الصعب جداً أن يقيم هؤلاء تخطيطاً لعمل إسلامى موضوعى مركز فى أى اتجاه من اتجاهات الإصلاح . .

— وفى الآونة الأخيرة أصدرت حكومة لبلد إسلامى كبير قراراً بأن تكون كل الدعوات الإسلامية (وغير الإسلامية للتمويه) عن طريقهم . .

ومعنى ذلك بوضوح أن هؤلاء الذين سترشحهم هذه الحكومة لحضور المؤتمرات الإسلامية سيمثلون هذه الحكومة أكثر من تمثيلهم للفكرة الإسلامية ! !

إننى هنا أريد أن ألمح إلى حقيقة هامة . .

فإنه على الرغم من اختلاف اللغات والأوطان لليهود . فقد نجحوا فى تحقيق أهدافهم لأنهم ينطلقون من « أيديلوجية » واحدة ، وشعور واحد ، وأمل واحـــد .

ومع الوعى بكثير من التحفظات يمكن القول بأن الشيوعيين قد نجحوا منذ سنة ١٩١٧ فى تحقيق تقدم عالمى . . لنفس الأسباب التى نجح من أجلها اليهود . . حتى وإن وضحت وهميتها فيما بعد .

أما التجمعات الأخرى التى تنتظم العالم الآن . . دون أن يتوفر لها أساس « أيديلوجى » وشعورى — فقد ثبت فشلها . . وجامعة الدول العربية . ومنظمة الوحدة الإفريقية . . وكتلة عدم الانحياز . . كلها من الأمثلة الدالة على ذلك .

وبالتالى فما لم يتوافر للمؤتمرات الإسلامية بكل وضوح : « الأيديلوجية الحركية » والشعور الواحد . . والأمل الواحد . فإن مصيرها سيكون كمصير المؤتمرات التى تعقدها المنظمات السالفة الذكر ! !

وإن الانتماء الرسمى للإسلام ، أو للمنظمات الإسلامية ، أو للعلوم

الإسلامية — ليس كافياً لتوفير هذه الثلاثية الضرورية : العقيدة . . والوجدان . . والأمل لالمصير .

• • •

إن هذه المؤتمرات — فى ظل وضعيتها الراهنة — تفقد كثيراً من جدواها .

ولكى تحتل هذه المؤتمرات موقعاً حيوياً يتوجب أن تخضع لتقويم جديد ، ولرؤية جديدة تخلصها من كثير مما يعوق عطاءها .

وكما رأينا من مسيرة اليهود خلال هذا القرن ، فإن المؤتمرات يمكن أن تتحول إلى أداة قوية لو تخلصت من هذه المعوقات ، ولو انطلقت حرة خالصة تبحث عن علاج لأزمة التطور الحضارى للأمة الإسلامية فى مجالات المرض المختلفة ! !

موقف المسلم من المؤتمرات :

سنعالج بإذن الله فى الصفحات التالية . . ما يتعلق بالمؤتمرات الإسلامية فى مستوياتها المختلفة ، مركزين على المؤتمرات الفكرية . . ومقدمين معالم طريق جديد — من وجهة نظرنا — للمؤتمرات الإسلامية . أى أن الصفحات التالية سوف تحمل الإجابة على السؤال الثانى الذى طرحناه ، وهو : « ما الطريق — فى ظل الواقع الإسلامى — لكى تؤدى هذه المؤتمرات دوراً إيجابياً ؟ . .

— لكننا — قبل ذلك — نجد أنفسنا مضطرين للإجابة عن سؤال آخر يرتبط بهذا السؤال الأساسى ، ويمهد له . . وهو :

— ما موقف المسلم — فى ظل الواقع الإسلامى بكل ما يحمله هذا الواقع من ملامح — تجاه هذه المؤتمرات ؟

— وواضح — بقليل من التمعن — أن البناء الداخلى للسؤال — يوحى

بأن الواقع الإسلامى ينتمى إلى تلك الحالة التى أطلقنا عليها حالة « الإرادة الخامدة المبعثرة » وبالتالى فهذا الواقع غير قابل للعطاء الحقيقى فى ظل تركيبه التلفيقى غير المنسجم !!

– لكن هل يعنى ذلك أن يعطل المسلم دولاب كل حركة ثقافية أو اجتماعية إصلاحية أو شبه إصلاحية (كالمؤتمرات مثلا) – وبالتالى يقف سلبياً منزوياً . . حتى يتغير تركيب هذا الواقع الإسلامى وفق الأسس المنسجمة مع الإرادة المبدعة للحضارة ؟

– ألا يعنى ذلك أن المسلم قد غرق فى وحل العلاقة الجدلية التى تربط البيضة بالدجاجة ؟ أو إلى ذلك الوحل الآخر الذى تردى فيه هؤلاء الذين يسقطون إقامة الصلاة حتى يقوم المجتمع الإسلامى الموافق لتصوراتهم ؟

– إن القضية تحتاج من المسلم إلى أن يتساءل من زاوية ثالثة : ألا يمكن أن تكون هذه الحركات شبه الإصلاحية – ومنها المؤتمرات – مجرد بدائل للعلاج الحقيقى الجذرى ، تمنحها أبنية فوقية ترفض أن تتعاطى مجتمعاتها العلاج الحقيقى للداء الخبيث . . وتعمد إلى بعض المسكنات والمهدئات ؟

– وإن التاريخ لقادر – ولا سيما المعاصر – على إسعافنا بنماذج من تلك البدائل التى قدمتها الأبنية الفوقية للشعوب الاسلامية ، كلما أوشكت هذه الشعوب – فى بعض ساعات العسرة – أن تمسك بخيط العلاج الحقيقى المنقذ لها من ورطتها الحضارية . . .

والطرق الصوفية التى لعبت دوراً خطيراً فى الجزائر قبل الاستقلال ، وفى مصر إبان الحكم الدكتاتورى الانقلابى – أبرز دليل على ذلك . . !!

والأجهزة الاسلامية « الاسمية » التى كان يرعاها الاستعمار ، أو ترعاها الحكومات « الاشتراكية » دليل آخر يقدم فى هذا السبيل .

• • •

إنها فى الحقيقة معادلة صعبة يواجهها الإنسان المسلم فى هذا العصر .

ومع ذلك . . فطبيعة الإسلام وتجربته التاريخية الحية يقدمان للإنسان المسلم الزاد الكافى للسباحة فى كل البحار الصعبة .

وفى هذا الموقف يقدم التصور الإسلامى ثلاثة خيوط لابد أن يمسك بها المسلم فى آن واحد :

أولا : إن الإنسان المسلم – من حيث جذره الإسلامى – يجب أن يتعامل مع الكون والتاريخ على أساس « الإسلامية المتكاملة » وحدها . . وبالتالى ، فهو مطالب بأن يدفع بلا ملل أو ترقب للنتائج السريعة – عجلة الحضارة الإنسانية فى اتجاه سنن الله الكونية التى تمثل فى عطائها الأخير قيم الحق والخير والجمال . . . بحيث يمكن أن تجد خلية الحضارة الإسلامية مهادها وتربتها الصالحة لميلاد سليم . .

ثانياً : والإنسان المسلم ، إذ يحرك عجلة التاريخ بلا يأس فى هذا الاتجاه الأساسى – عليه كذلك أن يقلق مضجع الباطل ، وأن يرشقه بما تجود به كنانته من سهام . . فى ظل الظروف المتاحة . .

– وبهذا المنظار يقتحم الإنسان المسلم – كل المجالات ، سواء كانت مؤتمرات جزئية ، أو ترقيعات لبعض الأوضاع ، كقضية إعادة الإنسان المسلم إلى نظافته فى بعض البلدان ، وكقضية تحريم الخمور ، أو تطبيق الحدود ، أو « قانون من أين لك هذا » – أى مشروعية الثروة – أو التصنيع ، أو إحياء رسالة المسجد . . . فى بعض البلدان الأخرى .

إن هذه الاصلاحات – فى واقع الأمر – مجرد أجزاء ترقيعية فى تصور ووعى المسلم ، وهى لن تؤتى ثمارها إلا فى ظل الإسلامية المتكاملة . . . هذا حق . .

ومن الحق الذى ينضم إلى هذا التصور كذلك أن الإنسان المسلم يعى أن « ميلاد حضارة » لا يمكن أن يخرج من حلقة توصيات أو قرارات أو شعارات . . وإنما يخرج من محضن الحضارة الوحيد الذى يتشكل من عناصر

أبرزها وآمرها : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . . .
أى عنصر إطلاق الإرادة من إسار الخمول والتشتت والاستسلام .

كل هذا حق فى التصور الإسلامى :

– لكن من الحق كذلك ، ضرورة تطبيق هذا الحديث الشريف الصحيح : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . . فمن لم يستطع فبلسانه ، فمن لم يستطع فبقلبه . . وذلك أضعف الإيمان . » .

فهذه مستويات مرحلية للتغيير معترف بها كذلك ، وهى منسجمة – على المستوى البعيد – مع التغيير الحضارى الكلى المنشود ، ذلك الذى يمثل البداية الصحيحة والوحيدة .

ثالثاً : وهذا الإنسان المسلم – مع هذا الوعى بالحقيقة التاريخية الكبرى ، ومع الاسهام فى التغيير المرحلى – عليه كذلك اسقاط البدائل المطروحة وإجهاضها . . .

ويكون ذلك عن طريق الإصرار على التمسك بالحقيقة الكبرى وبالجذور الحضارية . وبتحويل هذه البدائل إلى فرص لصالح مبادئه وتصوره . . . ينفذ منها بأكبر قدر ممكن إلى خدمة أهدافه . .

– فإذا راحت دولة إسلامية – مثلا – تعقد مؤتمراً إسلامياً بمناسبة « قرب الانتخابات » كى تكسب أصوات الدهماء ، فلا ضير من حضور الإنسان المسلم هذا المؤتمر ، والعمل على توجيهه . . بل إن فى الإمكان توجيهه ضد عملية التمويه نفسها . . ! !

– والأمر نفسه إذا عقدت دولة أبرز معالم حكمها تدمير قوانين الأحوال الشخصية الإسلامية والشريعة كلها – « أسبوعاً » للفقه . . فإن على المسلم – أيضاً – أن يكون الكيس الفطن القادر على توجيه هذه الفرصة ضد أعداء الشريعة الإسلامية ، حتى ولو كانوا الداعين للمؤتمر ! !

* * *

إن هذه الخيوط الثلاثة سالفة الذكر تدلنا على طبيعة الأسلوب الذى يتعامل به الإنسان المسلم مع ما يجرى الآن من أنشطة فى العالم الإسلامى كله . . ومنها المؤتمرات الإسلامية ، بيت القصيد فى هذا الحديث .

المؤتمرات الإسلامية . . . تقويم وتوجيه :

ونعود للسؤال الأساسى الذى لا يزال مطروحاً :

– ما الطريق لكى تحقق هذه المؤتمرات دوراً إيجابياً فى ظل الواقع الذى ألمعنا إليه سلفاً ؟

إننا هنا نجد أنفسنا مضطرين لتصنيف هذه المؤتمرات وفق مستوياتها المختلفة . .

(أ) مؤتمرات القمة :

فهناك مؤتمرات على مستوى القمة (الملوك والرؤساء) وهذه المؤتمرات لا مجال لتفصيل الحديث عنها فى هذه الصفحات . .

ومع أن مؤتمرين إسلاميين فقط قد عقدا على هذا المستوى خلال العصر الحديث – فإن الأمل كبير فى أن تستمر مسيرة مؤتمرات القمة الإسلامية ، بما ينبثق عنها من مؤتمرات وزراء الخارجية ، أو المالية .

لكن المرجو كذلك أن تكون هذه المؤتمرات دورية على المستويين ، وألا يبقى انعقادها خاضعاً لظروف طارئة . .

فمن المعروف أن مؤتمر القمة الإسلامى الأول « مؤتمر الرباط » – الذى عقد فى سبتمبر ١٩٦٩ م – على إثر إحراق اسرائيل للمسجد الأقصى – كان رد فعل لهذا الاستفزاز اليهودى للمشاعر الإسلامية ، وبالتالى ، فإنه لم يسبقه إعداد مناسب أو دراسات كافية ، ولم يكن لدى المؤتمرين جدول أعمال محدد ، اللهم إلا قضية القدس .

ولم ينته هذا المؤتمر — نتيجة هذا — إلى إصدار أية قرارات ، وإنما تركزت قيمته فى أنه إعلان عن منعطف جديد . هى سياسة التضامن الإسلامى التى غرس بذرتها شهيد الإسلام « الفيصل » رحمه الله رحمة واسعة .

لكن مؤتمرات أربعة على مستوى وزراء الخارجية قد تلت هذا المؤتمر . (جدة ١٩٧٠ م ، وكوالا لامبور ١٩٧١ ، وجدة — مرة ثانية — ١٩٧٢ م ، وبنغازى ١٩٧٣) — فأعطت هذه المؤتمرات الأربعة قيمة جديدة لمؤتمر الرباط ، بالإضافة إلى نتيجة تنظيمية أخرى قد يكون لها تأثير فى المستقبل الإسلامى ، وهى إنشاء ما يعرف بمنظمة المؤتمر الإسلامى التى كانت — أيضاً — إشارة جديدة لمنعطف التضامن الإسلامى العظيم .

أما مؤتمر لاهور (٣٠ محرم ١٣٩٤ م — ٢٢ فبراير ١٩٧٤ م) فقد توافرت له ظروف صالحة لم تتوافر لمؤتمر الرباط . . وبالتالى : فقد مثل أكبر تجمع إسلامى فى العصر الحديث (٢٨ دولة) كما مثل أقوى نبض فى مسيرة المؤتمرات الإسلامية ودورها فى تحقيق البعث الإسلامى الوشيك بإذن الله ! !

(ب) مؤتمرات مشبوهة :

تتبنى أحياناً جهات غير إسلامية ، أو إسلامية موجهة توجيهاً غير إسلامى ، عقد مؤتمرات ذات طابع فكرى إسلامى .

وهذه المؤتمرات يعد لها إعداداً جيداً ، وتتوافر لها إمكانات كبيرة ، ويخطط لها تخطيطاً عصرياً ، وهى تنفرد — عموماً — بمميزات خاصة منها :

- فهى تحدد سلفاً أهدافاً « استراتيجية » .
- وهى تمون من جهات غير علمية .
- وهى تسعى إلى توجيه الأفكار فى العالم الإسلامى عن طريق إثارة مشكلات بعينها ، والتركيز عليها .

• أو تسعى إلى استكشاف الأفكار التى تهب فى العالم الإسلامى . والتى قد تحرك تيارات عقدية أو سياسية .

• وهى تدعو – من العالم الإسلامى – أناساً بعينهم أو هيئات بعينها ، لـكى تصل إلى غرضها بيسر .

ونحن لن نقف عند الحدث الأخير « مهرجان لندن » ١٣٩٦ هـ ، والشخصيات التى خططت له وقادته بذكاء شديد من أمثال « سير هارولد بيلى » – سفير سابق لبريطانيا لدي السعودية وشخصية سياسية معروفة ، و « لورد كارادون » – شخصية سياسية دبلوماسية تقلبت فى مناصب سياسية خطيرة – ، و « سير أنتونى ناتنغ » – وزير خارجية سابق لبريطانيا ، إلى آخر هذا الطراز من الشخصيات !! .

قلت . . إنى لن أقف عند هذا المهرجان لأن اقتناعى الشخصى أن هذا المهرجان مشروع سياحى تجارى أكثر منه أى شيء آخر . . . ومثله – بالتالى – ليس مناط بحثنا . .

وحسبى أن أقف وقفة وجيزة عند ما يسمى بندوات الحوار الإسلامى المسيحى ، وذلك لثقتى التامة فى أنها تندرج تحت قائمة المؤتمرات المشبوهة ، لأنها على الأقل لا تحترم توصياتها من الجانب المسيحى من الناحية العملية ؛ ولأنها كذلك حوار بين الأقوياء والضعفاء، ولأنها أيضاً لم تبرز إلا فى ظروف معينة . . . بقصد الإسهام فى تحقيق أهداف معينة[1] .

وأمامى الآن وأنا أكتب هذه السطور التوصيات الأربع والعشرون المنبثقة عن آخر ندوة عقدت للحوار الإسلامى المسيحى فى مدينة طرابلس بليبيا ، فى الفترة الواقعة ما بين الأول والسادس من شهر صفر عام ١٣٩٦ هـ .

وإن النظرة الفاحصة فى هذه التوصيات لتكشف عن استغلال الجانب

---

(١) انظر موضوع أمريكا تطوق العالم الإسلامى من الفصل الأول .

المسيحى لها أكبر استغلال — بغية ضرب التصورات الإسلامية الصحيحة فى الصميم .

• فالتوصيات الثمانى الأولى — فى رأيى — هى لصالح المسيحيين ؛ لأنها تخلط فى التصور الاعتقادى بين المسلمين والمسيحيين على قدر سواء ، مع أن هذا غير صحيح . . وفيها أيضاً تكتيل للجانب الإسلامى ضد قوى معينة لخدمة الأهداف الاستعمارية وحدها . . ولن يصيب الجانب الإسلامى منها أى خير .

• والحقوق الإنسانية الإسلامية ضائعة فى زحمة هذه التوصيات الكثيرة ولم ترد إلا إشارة مائعة عن شعب فلسطين المسحوق .

• وهناك عدة توصيات تسوى بين المسيحية والإسلام فى كثير من القضايا التى لم تهتم بها المسيحية ، بل كانت — تاريخياً — من أكبر العيوب المأخوذة عليها ؛ كموقفها من العلم ، والتصور الكونى ، والتنظيم الحياتى .

• وهناك دعوة مسيحية للمسلمين بأن يعيدوا النظر فى فهم الإنجيل .

• وهناك تضليل متعمد فى التوصيتين رقم ١٨ ، ٢٠ فالأولى تجعل الحرب اللبنانية حرباً غير دينية ، والثانية تفرق بين اليهودية والصهيونية بنفس المنظار السياسى الذى يخدم اليهود ومصالحهم .

* * *

وبنفس الإيجاز أتناول نموذجاً آخر للمؤتمرات التى تظللها غيوم الشك . وهو « المؤتمر الدولى عن الإسلام وباكستان وإيران ودول الخليج » . ومن خلال الرصد للقضايا التى عولجت وكتابها سيتضح لنا الاتجاه «الاستراتيجى» لهذا المؤتمر والقائمين عليه .

— فمن الموضوعات التى عولجت : نهضة الإسلام بمنظور عالمى للدكتور « رالف بريبانتى » — أستاذ العلوم السياسية فى جامعة ديوك .

– ومن الموضوعات : « ما يواجه الإسلام من مشكلات فى لبنان كدولة ذات نسبة كبيرة من السكان غير المسلمين » للدكتور حسن صعب .

وللعلم . . . فإن التسليم بالنسبة الكبيرة لغير المسلمين فى لبنان – خطأ ، كما أن « حسن صعب » . . كاتب تقدمى أشتراكى (ومن كتاب مجلة مواقف البيروتية) !!

– ومن الموضوعات : « التغيير فى أنماط وأشكال القوة فى جنوب آسيا منذ عام ١٩٧١ وآثارها على العالم الإسلامى » لغلام وحيد شدورى – أستاذ العلوم السياسية ومدير الدراسات الدولية فى جامعة كارولينا الشمالية .

فهذه الموضوعات وغيرها مما يخدم قضايا « استراتيجية غربية » أكثر مما يخدم العالم الإسلامى أو الفكر الإسلامى .

ومن هنا فلم يكن غريباً أن تنفق على هذا المؤتمر وزارة الخارجية الأمريكية . . . !!

ولا يجوز أن يعمينا عن الطبيعة الحقيقية لأمثال هذه المؤتمرات وما تتشح به من أردية المنهج العلمى . . أو وجود بعض عناصر إسلامية فيها . . . فهذا داخل فى إطار السياسة الاستعمارية لتمويه حقيقة الصراع الفكرى .

المؤتمرات الفكرية الإسلامية (تقويم وتوجيه) :

إن المؤتمرات التى تعنينا بالدرجة الأولى – فى دراستنا هذه ليست هى المؤتمرات السياسية فى مستوياتها المختلفة ، ولا تلك المؤتمرات المشبوهة التى تتلمس وسائل الانقضاض على العالم الإسلامى . . وذلك لأن هذين النوعين من المؤتمرات يحتاج الحديث عنهما إلى تناول تشريحى لهيكل العالم الإسلامى كله فى العصر الحديث .

وإنما الذى يعنينا هو تلك المؤتمرات « الإسلامية الفكرية » التى تتبناها مؤسسات إسلامية أو علمية أو جهات رسمية أو شعبية .

وفى البداية أحب أن أعيد ما قررته سلفاً من أن مسيرة هذه المؤتمرات – إلى الآن – لا تكشف عن آثار ذات شأن ، تسهم بها فى عملية التطور الحضارى للأمة الإسلامية .

– وما دراستى هذه إلا محاولة لتخطى هذا الحاجز التقليدى ، كى يحقق هذا النوع من المؤتمرات عطاء إيجابياً ، وحتى تكون هذه المؤتمرات – حقيقة لا ادعاء – وسيلة من وسائل تقدم الأمة الإسلامية ورقيها .

معالم طريق جديد « واقعى » لهذه المؤتمرات :

ولكى تحقق هذه المؤتمرات أغراضاً عملية ، فإن من الأفضل للمؤسسات القائمة عليها ، أن تعقدها بغية الوصول إلى رأى شامل حول نقاط محددة . وبهذا التصور أحلل وأقوم بعض المؤتمرات . . . ذاكراً ما أراه فيها من إيجابيات وسلبيات .

وانطلاقاً من هذا فإننى أرى أن أفضل الموضوعات المطروحة للبحث فى مؤتمر الفقه الإسلامى الذى هيمنت على إعداده جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (١ -١١-٩٦ ﻫ) – هو موضوع « الشبهات التى تثار حول تطبيق الشريعة » فهذا موضوع محدد لا تنسحب عليه هذه العمومية التى تنسحب على موضوعات مثل « أثر تطبيق الحدود الشرعية » أو « الاجتهاد » ، أو « نظام القضاء » ، أو « الغزو الفكرى » ، أو « الإعلام » – فإن كل موضوع من هذه الموضوعات يكاد يكون فى حاجة إلى مؤتمر مستقل ! !

وبالمنظار نفسه أرى أن أفضل ما توصل إليه مؤتمر الاقتصاد الإسلامى العالمى المنعقد فى مكة (٢١ – ٢٦ صفر ١٣٩٦ﻫ) بإشراف جامعة الملك عبد العزيز – هما هاتان التوصيتان اللتان تنص أولاهما على « حصر المراجع والمصادر المتعلقة بالاقتصاد الإسلامى عبر العصور الإسلامية » .

وتنص ثانيتهما على أن « تنشئ جامعة الملك عبد العزيز ضمن جهودها العلمية مركزاً لدراسة الاقتصاد الإسلامى » .

أما مؤتمر « رسالة المسجد » الذى عقدته رابطة العالم الإسلامى (١٥–١٨ رمضان ١٣٩٦ هـ) فإن أفضل ما توصل إليه – فى رأيى – هو فكرة تكوين مجلس أعلى باسم « المجلس الأعلى للمساجد » .

كما كان مؤتمر التضامن الإسلامى فى مجالات العلم والتكنولوجيا الذى أقامته جامعة الرياض (٢٠ – ٢٥ مارس ١٩٧٦ م) موفقاً فى توصيته « بإنشاء مؤسسة للعلم والتكنولوجيا تهدف إلى القيام بالدراسات المستمرة ذات الطبيعة التخطيطية ، وإلى إنشاء معاهد بحوث علمية متخصصة . . . » .

– إن هذه التوصيات هى الاتجاهات والنتائج الأكثر واقعية وإيجابية وهى التوصيات التى يجب أن تحصر فيها جهودها تلك المؤسسات المهيمنة على عقد المؤتمرات التى تنتمى إلى هذا النوع .

ويرتبط بذلك أن يكون فى وعى هذه المؤسسات أنها ملزمة – أدبياً – بأن تكون هى القدوة فى تنفيذ هذه التوصيات الواقعية المحدودة ، وأن تجعل هذه التوصيات جزءاً من سياستها العلمية وأهدافها القريبة والبعيدة .

ومع ذلك ، وإحقاقاً للحق وحده ، فإن هذه الآثار المحدودة للمؤتمرات سالفة الذكر تبدو وكأنها ومضات مشعة وسط ركود مسيطر على الطابع العام للمؤتمرات الإسلامية . .

– فإن مؤتمراً إسلامياً عقد فى الكويت على مستوى وزراء الأوقاف لم يكن له صدى عملى ذو بال .

– وإن مؤتمرات كثيرة عقدتها – بجهد مخلص – رابطة العالم الإسلامى تحتاج نتائجها وتوصياتها لمراجعة وتقويم عادل . . وبخاصة أن كثيراً من توصيات هذه المؤتمرات لم يخرج إلى حيز التنفيذ فى أى مستوى من مستويات التطبيق . .

ويبدو الأمر أحياناً وكأن هذه التوصيات مناط تنفيذها بجهات أخرى . . أو كأنها إرشادات وتوجيهات . .

وكنموذج لهذا . . فإن من بين وصايا المؤتمر الإسلامى الإفريقى الأول الذى عقد بدعوة من الرابطة فى مدينة « نواكشوط » – عاصمة موريتانيا – (فى الفترة من ٤ إلى ٦ من جمادى الأولى ١٣٩٦ هـ) – توصية تحث على « العمل على إعداد كتب مبسطة لأطفال المسلمين تمكنهم من فهم دينهم ، وتغرس فيهم روح المقاومة والحصانة » . . .

ومبلغ علمى أن الرابطة وزعت نشرة على الصحف الإسلامية تأمل فيها أن يعمل مديروها على إخراج هذه الكتب . . أو الاتصال بالقادرين على إخراجها . . .

وهكذا تدور الأمور فى حلقات مفرغة دون أن يخطط لمسيرتها بحيث تصل إلى نتائج حاسمة معروفة البداية والغاية . . . ! !

– وهناك مؤتمرات عقدت فى مصر قام بها جهاز منظم ، تمثل المؤتمرات معلماً كبيراً فى نشاطه (مجمع البحوث الإسلامية) إلا أن أثرها لم يخرج عن دائرتين :

١ – دائرة البحوث التى تطبع وتوزع بمقابل مادى .

٢ – دائرة إصدار بعض الفتاوى التى لازالت تتصل بقضايا جزئية ، ولم تصل إلى حد إبداء الرأى فى القضايا التى تلح على ضمير الإنسان المسلم ، مما فرضته طبيعة العصر الاقتصادية والاجتماعية . وقس على هذا النمط من المؤتمرات . . مؤتمر العراق ١٣٩٥ هـ ، ومؤتمر تونس للفقه الإسلامى (! !) ، ومؤتمر السيرة فى باكستان ١٣٩٦ هـ . . ومؤتمرات كثيرة أخرى فى ليبيا وسوريا والمغرب وغيرها .

* * *

أما مؤتمرات الجزائر الدورية التى يطلق عليها « ملتقيات الفكر الإسلامى » فقد تميزت ببعض الخصائص التى تجعلها نهجاً متميزاً فى أسلوب المؤتمرات الإسلامية . . .

• فهذه الملتقيات تقام كل عام منذ ثلاث عشرة سنة بصورة منتظمة .

• وهى تعالج موضوعات تاريخية وإسلامية . . كى تصل إلى رؤية إسلامية علمية فيها . . وعلى سبيل المثال فهى تلح على ثلاث نقاط لها أهميتها بالنسبة لكفاح الجزائر وتحررها العقدى والفكرى من السيطرة الفرنسية على تاريخها وحضارتها :

(ا) النقطة الأولى هى : « التاريخ الجزائرى » — من وجهة نظر إسلامية عربية جزائرية .

وتدعيما لهذا الاتجاه ، فهى تقيم المؤتمرات فى مدن جزائرية تختلف كل سنة عنها فى الأخرى . . فمرة يعقد الملتقى فى العاصمة ، وثانية فى قسنطينة ، وثالثة فى تيزى وزو ، ورابعة فى بجاية ، وخامسة فى تلمسان ، و . . . فى عنابة . . . وهكذا . . .

وتصبح المدينة المضيفة — بتاريخها وحضارتها — موضوعاً من موضوعات الملتقى . . تخضع للدرس والتحليل .

(ب) والنقطة الثانية هى : « التاريخ الإسلامى » — ولا سيما الدولة العثمانية — وقد نجحت نجاحاً كبيراً فى إنصاف هذه الخلافة ، وإعطائها حقها من المدح والقدح .

وأذكر أن الدكتور زكى نجيب محمود — الفيلسوف الوضعى المعروف والحائز على جائزة الدولة فى مصر — قد صرح لى فى ملتقى تلمسان ١٣٩٥ هـ : بأنه أفاد من هذه الملتقيات فائدة كبيرة فيما يتعلق بإنصاف الدولة العثمانية . . فقد كان هو ككل المثقفين ثقافة غربية لا يعرف للدولة العثمانية حسنة من الحسنات .

(ج) والنقطة الثالثة التى تركز عليها الملتقيات . . هى إبراز المعانى الحية للقيم الإسلامية . . ففى كل ملتقى تتناول عبادة من العبادات الإسلامية بمنظار جيد ، كأثر الحج فى الحضارة الإسلامية ، أو الآثار السياسية والاجتماعية للصلاة والزكاة والصيام . . . وهلم جرا .

* ومن خصائص هذه الملتقيات أيضاً أنها تضع فى برنامجها دعوة عدد محدود من الذين لا ينتمون انتماء كاملا للفكر الإسلامى الأصيل ، بل تدعو أحياناً بعض المستشرقين .

وهؤلاء فى الحقيقة بالنسبة للمجتمع الجزائرى الذى عاش الحضارة الأوربية رغم أنفه — يكون لهم تأثيرهم فى قدح زناد الإسلاميين ، وتهيئة الجو لحوار علمى قوى .

وأشهد أن مستوى الحوار الإسلامى يرتفع من عام لعام ، متخلصاً فى مسيرته الخطابية والانفعالية والإنشائية . . للدرجة أن ملتقى الفكر الإسلامى الذى عقد « بعنابة » فى ١٢ رجب ١٣٩٦ ﻫ (١٠-٧-١٩٧٦م) كان قوى الدلالة على تفوق الفكر الإسلامى بصورة واضحة .

* ومن الخصائص التى لا يمكن إغفالها كذلك — حضور عدد من طلاب الجامعات والمعاهد العليـــا ومدرسى المراحل التعليمية — يتراوح بين ألف وألف وخمسمائة . وهم يحضرون من مختلف مناطق الجزائر باشتراكات رمزية وتتولى وزارة التعليم الأصلى والشئون الدينية سائر نفقات إقامتهم وسفرهم . وليس لهم حق الاشتراك فى المناقشات ، وإنما لهم حق توجيه بعض الأسئلة فى وقت محدد ، بالإضافة إلى حضور كل المحاضرات والمناقشات وتسلم المحاضرات . وهم يفيدون من حضور عشرة أيام وسط هذا المستوى الفكرى الإسلامى والعلمى الحافل — فائدة كبرى يلمسها الشعب الجزائرى كله ، وهو يخوض معركة « الأسلمة » و « التعريب » ! !

وفى ضوء هذه الخصائص تتحقق فوائد متعددة ، ولا تقف الفائدة عند حد التوصيات والقرارات والنشرات والمطبوعات .

وحبذا أن تفيد المؤسسات الإسلامية من فكرة الملتقيات الجزائرية وأسلوبها — بما يتلاءم مع ظروفها وبيئتها وإمكاناتها .

* * *

وما يقال عن ملتقيات الجزائر ، يقال كذلك عن الفوائد العملية التى تحققها المؤتمرات الدورية لاتحاد الطلبة المسلمين فى الولايات المتحدة وكندا . . فهذه المؤتمرات السنوية لا تبحث عن « التوصيات والقرارات » فى الدرجة الأولى . وإنما تمثل مؤتمراتها ظرفاً مناسباً لتدعيم الارتباط العقدى والسلوكى بالإسلام وسط بحر المدنية الأوربية المتلاطم الأمواج .

وعلى سبيل المثال ، فإن المؤتمر السنوى الرابع عشر للاتحاد المنعقد فى الفترة من ٢٨ إلى ٣١ مايو سنة ١٩٧٦ م — حضره حوالى ١٣٠٠٠ رجل و ٥٠٠ امرأة وحوالى ٤٠٠ طفل — وضعت لهم كافة الترتيبات اللازمة لإقامة الشعائر فى أوقاتها ، وتوفير اللحوم الحلال . . . وغير ذلك من مظاهر المناخ الإسلامى . . وهذا الأسلوب يخرج المؤتمر عن الشكل المعروف للمؤتمرات التقليدية ، ويجعله أشبه بتجمع إسلامى . . يعيش مناخاً إسلامياً وحياة إسلامية لفترة محددة ! ! .

أسلوب جديد للمؤتمرات الإسلامية :

إننى أعتبر هذه الدراسة — بجملتها — مشروعاً قابلا للقبول والرفض والتعديل .

— وهى — كلها — أحكام قد يختلف حولها الكثيرون . .

— وهى — فى اقتناعى — اقتراح بإعادة النظر فى الطريق الذى تسير فيه المؤتمرات الإسلامية . . مقدم بالدرجة الأولى إلى الجامعات الإسلامية وعلى رأسها جامعة الإمام محمد بن سعود — وهى اقتراح مقدم إلى رابطة العالم الإسلامى والندوة العالمية للشباب الإسلامى ، ومنظمة المؤتمر الإسلامى .

— وهى اقتراح مقدم إلى مجمع البحوث الإسلامية بمصر ، وإدارة الملتقيات الإسلامية بوزارة التعليم الأصلى بالجزائر ، وبقية المؤسسات المهتمة بهذا اللون من النشاط الإسلامى .

وإلى أن يتحقق الأمل فى أن تخضع المؤتمرات الإسلامية لدراسة وتخطيط يحقق لها التكامل — فإنى أقدم — إلى جانب ما قدمته فى الصفحات السابقة — مجموعة من التصورات والموضوعات التى أراها جديرة بعناية من أتوجه إليهم بهذه الدراسة . .

فنى تصورى أن هناك مستويين يجب أن تنسق هذه المؤتمرات على أساسهما :

أولا : مستوى القضايا المصيرية للأمة الإسلامية .

وفى هذا المستوى . . وانطلاقاً من المسئولية القيادية للفكر الإسلامى ، يجب أن تعالج بكل شجاعة ووضوح — تلك القضايا التى يتحدد على أساسها الدور الذى يمكن أن يحتله هذا العالم الإسلامى فى التاريخ والحضارة .

ولكى تكون المفاهيم التى أقدمها واضحة ، فإنى أقدم نماذج من هذه القضايا ، لم تعالج — للأسف الشديد — خلال المؤتمرات الإسلامية العديدة التى عقدت على امتداد الساحة الإسلامية . .

فمن هذه القضـــايا :

١ — قضية الوحدة الإسلامية :

العقبات التى تحول دون تحقيقها . . مسئولية الأجهزة الحاكمة . . مسئولية الفرد المسلم . . مسئولية الغزو الفكرى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى . الطرق الواقعية لتحقيق هذه الوحدة . . . الخ .

٢ — النظام السياسى الإسلامى :

(ا) الحقوق الإنسانية للفرد ولا سيما الحرية .

(ب) حق عزل الحـــاكم .

(ح) قضية الدكتاتورية فى العالم الإسلامى ، وضد الإسلام بخاصة .

(د) « ملف » تعذيب الإنسان المسلم فى العصر الحديث .

(هـ) طرق حماية المسلم — فى المستقبل — من هذه الأنظمة الدكتاتوريه المأجورة .

(و) وطرق حماية المسلم من التصفية الجسدية والإنسانية التى يتعرض لها خلال هذا القرن . . ! !

٣ — قضية التراث الإسلامى :

طرق بعثه ... الموقف « العقلانى » العصرى للإفادة من هذا التراث ، إمكانية نقد التراث فى الأصول والفروع . . القضايا التاريخية فى التراث التى تستحق « التحنيط والتجميد » كبعض قضايا علم الكلام مثلا ..

٤ — فكرة القومية وخطرها على الروح الإسلامية والكيان الإسلامى .

٥ — حصر التصورات الخاطئة للإسلام وتأثيرها السلبى على تقدم العالم الإسلامى .

٦ — قضية الحكم بغير ما أنزل الله فى العالم الإسلامى :

أسبابها . . . على من تقع مسئوليتها . واجبات الفرد المسلم تجاه القوانين الوضعية . كيفية تعايشه « الإجبارى أحيانا » معها . . وأسلوب مقاومتها . . وإجهاضها .

(وهذه مجرد نماذج تدل على غيرها من القضايا الكبرى المصيرية التى تحتاج إلى علاج ، فى هذا المستوى) .

ثانياً : مستوى المشكلات الإسلامية النوعية :

وفى هذا المستوى يجب الاقتراب قدر الاستطاعة من الواقع المحيط بالمسلمين ، بدلا من الاستغراق فى عموميات وجدليات نظرية ، بحيث تقدم مشكلة محدودة ، وتدرس دراسة شاملة ، لينتهى الأمر فيها إلى مواقف محددة .

وفى السطور التالية أطرح بعض هذه الموضوعات التى أراها جديرة بالدراسة فى هذا المستوى .

١ ـ معالم التخطيط الصليبى لالتهام أندونيسيا فى نصف قرن وطرق مقاومته .

٢ ـ مأساة المسلمين فى البلاد الشيوعيه ، ولا سيما فى روسيا والصين وواجب المسلمين نحوهم .

٣ ـ أخطار ابتعاث الشباب للدراسة فى الخارج ، وطرق حمايتهم .

٤ ـ خطر استيراد « الأشياء » و « الأفكار » على قضية البناء الحضارى الذاتى للأمة الإسلامية .

٥ ـ تقويم أوضاع الأقليات الإسلامية فى آسيا ، وسبل الحفاظ عليهم .

٦ ـ أطماع إسرائيل فى شبه الجزيرة العربية !! .

٧ ـ أخطاء دائرة المعارف الإسلامية ، ومنظمة اليونسكو ، فى حق الإسلام ، فكراً وتاريخاً وحضارة .

٨ ـ بروز الدور الهندوسى فى الهجوم على الإسلام خلال ربع القرن الأخير ، وطرق مقاومته .

٩ ـ أساليب الدعوة إلى الإسلام فى البلاد الصناعية والمتقدمة .

١٠ ـ أزمة الفكر الإسلامى الحديث . . تعبيراً ومضموناً ، وطرق علاجها .

١١ ـ برنامج تعليمى للمرأة المسلمة . . يناسب فطرتها ورسالتها .
« المراحل الدراسية ـ النوعية العلمية ـ المناهج ـ الخطة ـ الأعمال » .

١٢ ـ أسباب ضياع فلسطين من وجهة نظر إسلامية .

١٣ ـ مسلمو لبنان . . والمؤامرات العالمية ، والمواقف العربية ، التى أدت إلى تخبطهم . . ! !

١٤ – التأثير الحضارى للبترول على البلدان الإسلامية إيجابا وسلباً .

(وثمة – بالتأكيد – قضايا نوعية كثيرة تصلح للعلاج والدراسة فى هذا المستوى . كما أن بعض القضايا التى طرحناها يمكن أن تعدل صياغتها بالطريقة الملائمة) .

– بيد أن من الضرورى الربط بين المستويين . . مستوى القضايا الكبرى ومستوى القضايا النوعية المحددة التى لا تزيد عن كونها مجرد أقراص أو عقاقير ، لا ينفصل « مفعولها » بالتأكيد عن تأثير العلاج الشامل الجذرى الذى يحققه المستوى الأول .

* * *

إن هذا الأسلوب الذى نقترحه ، بمستوييه سالفى الذكر ، يقدم بالمؤتمرات الإسلامية – على وجه العموم – من الواقع . ويعطى بحوث هذه المؤتمرات صفتى : « التحديد » و « التجديد » ، ويجعل هذه المؤتمرات – فى أقل درجاتها – محركاً قوياً للعقول والأفكار فى اتجاه الأخطار «الواقعية» المحدقة ، فلعلها تخطط وتعمل لتداركها . . . ومحركاً – أيضاً – فى اتجاه تحقيق بعض التقدم للأمة الإسلامية التى تعانى – بحق – أزمة حضارية كبرى ، وتقف – بحق – على مفترق الطرق . .

والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . .

محتويات الكتاب

رقم الإيداع ٧٩/٢٧٠٧

الترقيم الدولى – ٤–٤ ٩–١ ٠ ٣ ٧–٩٧٧

دار العدالة

للطباعة والنشر والتوزيع

٢٨ ش الإخلاص – الملاذ – دار السلام

القاهـرة

ت ٩٨٤٣٣٢